



رسائل جغرافية

استرابون، بلينيوس الكبير، بطليموس الإسكندري

ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها

تأليف : هنري إ. ماك آدم (برنستون)

ترجمة : مصطفى العبادي (الكويت)

محرم ١٤١٣ هـ

يوليو ١٩٩٢ م

١٤٦

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية

يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت	خارج الكويت
للمؤسسات ١٢ دينارا كويتيا (سنويا)	للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا (سنويا)
للأفراد ٦ دينارا كويتيا (سنويا)	للأفراد ٧.٥ دينارا كويتيا (سنويا)

الجمعية الجغرافية الكويتية

ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت الخالدية الرمز البريدي 72451

رسائل جغرافية

١٤٦

استرابون، بلينيوس الكبير، بطليموس الإسكندري

ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها

تأليف : هنري إ. ماك آدم (برنستون)
ترجمة : مصطفى العبادي (الكويت)

محرم ١٤١٣ هـ
يوليو ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

استرابون، بلينيوس الكبير، بطليموس الإسكندري

ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها

تأليف : هنري إ. ماك آدم (برنستون)*
ترجمة : مصطفى العبادي (الكويت)

مقدمة

خلّف لنا العالم الكلاسيكي القديم عن شبه الجزيرة العربية والشرق الأدنى ثلاثة أعمال علمية فقط تتضمن أوصافاً شاملة، بقيت كاملة للآن. هذه الأعمال هي «جغرافية» استرابون (Strabo) (كُتِب وروجع بين ٢٥ق.م و٢٣ق.م)، و«التاريخ الطبيعي» لبلينيوس الكبير (Pliny the Elder) (٧٧م)، و«جغرافية بطلميوس» (Ptolemy) (حوالي ١٥٠م). والغاية واحدة في كل من هذه الأعمال، وهي تسجيل وصف مستمد من مشاهدات شاهدي العيان والسجلات الكتابية السابقة عن «المعمورة» Oikoumene، من غرب أوربا إلى الهند ومن بحر البلطيق إلى منبع نهر النيل. ولكن المنهج في كل حالة كان مختلفاً ـ كما سنرى ـ بحيث أصبح لدينا ثلاثة تصورات عن هذه «المعمورة»، كل منها شديد التفرد في ذاتيته، وأحياناً تتطابق في بعض

(*) Henry I. MacAdam, "Strabo, Pliny the Elder And Ptolemy of Alexandria: Three Views of Ancient Arabia and Its Peoples", in **l'Arabie** PreIslamique, Actes du Colloque de Strasbourg 24-27 Juin 1987, ed. T. Fahd (1989) 289-320.

جوانبها، ولكن هذا التطابق لا يتحقق في أغلب الأحيان. ومما يلفت النظر في الأوصاف الثلاثة جميعاً، أن كلاً منها يشتمل على مقدمة فُصّل فيها الهدف والمجال والمنهج (بدرجات متباينة من التفصيل والوضوح) للقارىء المهتم بتلك الأمور. وهكذا أتيح لنا أن نقارن مقولات هذه المقدمات مع المعلومات الواردة في الصفحات التي أعقبت كلا منها، لنرى إذا كان ثمة علاقة بين الأهداف والنتائج. هذا فضلاً عن امكانية أن نقارن بين مقولات المقدمات عند كل مؤلف والآخر. ويبدأ هذا البحث أولاً بفحص مقولات المقدمات لكل من استرابون وبلينيوس وبطلميوس، ثم بعد ذلك نقابل ونقارن هذه المقولات مع الوصف الذي يقدمه كل منهم «للعربية» والأقاليم المجاورة لها. إننا في الواقع سنقوم بفحص كتاب في الجغرافية التاريخية، وموسوعة أو دائرة معارف في التاريخ الطبيعي، ومرجع دراسي في الجغرافية الرياضية. وبطلميوس وحده هو الذي يقدم شواهد إيضاحية على هيئة الخرائط.

مقدمة بلينيوس «للتاريخ الطبيعي»

بدلاً من أن أتبع التسلسل التاريخي في دراسة الأعمال الثلاثة التي أشرت إليها الآن، سوف أبدأ ببلينيوس، ثم أعود زمانياً إلى استرابون، وبعد ذلك أتحرك قدماً إلى بطلميوس. وهناك عدة أسباب تزكي هذا الترتيب في التناول. الأول هو أن فترة حياة بلينيوس تكاد تتماس مع استرابون، وبدرجة أقل يقيناً مع بطلميوس. السبب الثاني هو أن لغة بلينيوس اللاتينية وقائمة مراجعه «الفريدة في شمولها» (على حد تعبير قاموس اكسفورد الكلاسيكي ط ٢ ص ٨٤٦) تقعان خارج التقليد الأكاديمي الذي ينتمي له استرابون وبطلميوس. السبب الثالث هو أن المقدمة لكتاب بلينيوس «التاريخ الطبيعي» قد خضعت مؤخراً لدراسة فاحصة في مقال هام كتبها نيكولاس هاو Nicholas Howe (انظر Latomus 44 [1985] 561-576) وهي تمثل نقطة انطلاق في متناول أيدينا لعمل دراسات تحليلية مماثلة لكل من استرابون وبطلميوس.

وباستطاعتنا أن نقدم هنا خلاصة مختصرة لتحليل هاو لمنهجية بلينيوس. فالإهداء الشهير الذي يقدم به بلينيوس «التاريخ الطبيعي» إلى الامبراطور تيتوس (قوله «كنتَ لنا المثل لروح الزمالة الحقة في المعسكر» nobis quidem qualis in castrensi contubernio ـ مقدمة ٣) يعبر عن الفكرة الأساسية في المقدمة بأسرها. ويوحي بأن «التاريخ الطبيعي» يراد به «عملاً تعليمياً ضرورياً لإصلاح روما» (Howe 1985:561)، وهو مُشْبع بكراهية أساليب التعبير الشِّعري. فالنماذج الأدبية في نظر بلينيوس هي كتابات كاتو

Cato وڤارّو Varro، (وبدرجة أقل) ليڤيوس Livius. فهو يمتدح الفضائل الأساسية العادية: الاستقامة والبساطة وضبط النفس والتقوى، في جميع أجزاء الكتاب، وهذه الشمائل هي التي «مكّنت بلينيوس من أن يرتفع بدراسة العالم الطبيعي من مستوى الرغبة في المعرفة فقط إلى مجال تحقيق المثل الأخلاقية» (هاو ١٩٨٥: ٢٦٤). فقد كان اعتقاد بلينوس أن دراسة العالم الطبيعي (rerum natura ـ مقدمة ١٣) سوف تمنح عمله مكانة متميزة وسوف تُعلِّم الرجال من أصحاب النفوذ في الدولة الرومانية. وبإعتباره واحداً من أولئك الذين ترقّوا من وحدات طبقة الفرسان عن طريق القيادات العسكرية ودراسة القانون وتولي منصب بروقنصل في اسبانيا، اعتنق بلينيوس الفكرة الامبراطورية في عصره بواقعية رواقية. وألزم نفسه عن عمد بدور سياسي هامشي مُعْظَمَ سني حكم نيرون، وكان سعيداً بحق عندما ظهر ڤسباسيان وابنه تيتوس منتصرين في عام ٦٩.

إن تأكيد هاو أن الأعمال الشعرية أزاحت الكُتّاب التعليميين مثل بلينيوس بعيداً عن مركز الساحة الأدبية غير مقنع، فهو لا يدرك أن أفضل الشعراء كانوا أنفسهم تعليميين. ولا شك أن بلينيوس كان قادراً على أن يدرك ذلك. حقيقة إن فرجيل لا يكاد يحظى بذكر في المقدمة، ولكن هذا مرجعه ان فرجيل اختار الشعر بدلاً من النثر وسيلة للتعبير، وليس لأن فرجيل لم يكن لديه ما يقوله. كذلك فات هاوْ أن يلاحظ أن الإسهاب الذي اشتهر به اسلوب بلينيوس، بدلاً من الجُمل البسيطة الواضحة يكاد يُخفي عنا حقيقة أنه يخبرنا بمجمل نواياه في شيء من التفصيل. وهو ما ورد في منتصف المقدمة تقريباً (مقدمة ١٥)، ومكتوب بطريقة أُسَمِّيها «استجلاب بلينيوس البركة لنفسه»؛ (وكأنه يقول) طوبى لي، لأني في «التاريخ الطبيعي» تمكنتُ من أن أمنح (١) للقديم جِدَّةً (Vetustis novitatem dare)،

(٢) وللجديد ثقة (novis auctoritatem)، (٣) وللمألوف بريقاً (obsoletis nitorem)، (٤) وللمظلم نوراً (obscuis lucem)، (٥) وللمُعْتِم إشراقاً (Fastiditis gratiam)، (٦) وللمشكوك في أمره مصداقية (dubiis fidem)، (٧) ولكل شيء طبيعتَه الحقة (omnibus vere naturam)، (٨) وللطبيعة كلَّ خصالها (et naturae sua omnia). وليس من الواضح تماماً ما يقصده بلينيوس بالعبارتين الأخيرتين. ولكن مثل سائر البركات الثماني، فالموقف السائد إيجابي ومتفائل (انظر انجيل متّى ٣/٣-١١، وقارنه بإنجيل لوقا ٦/٢٠-٢٧ لدراسة الأضداد).

ومن أجل إنجاز عمله الموسوعي يخبرنا بلينيوس بعد بضع فقرات (مقدمة ١٧) أنه استمد معلوماته من نحو ألفيْ مجلد، بعد أن اختصرها في ٣٦ كتاباً متضمناً ما لا يقل عن ٢٠٬٠٠٠ حقيقة هامة، كانت قد أثبتها من قبل مائة مؤلف، كما تتضمن أيضاً حقائق كثيرة جديدة تماماً، أو كانت إلى وقته مهملة. ويُحدثنا بلينيوس الصغير (رسائل ٣/٥) عن النظام القاسي الذي ألزم عمُّه نَفْسَه به ليستفيد إلى أقصى درجة من ساعات يقظته. ونتيجة هذا كله هو ما يجب دراسته فيما يلي.

«العربية» عند بلينيوس

يبدو أن هناك أربعة مناطق متميزة في الشرق الأدنى يُطْلِق عليها بلينيوس اسم «العربية» Arabia. الأولى نُقابلها في ك ٥/١٢/٦٥. هذه هي «العربية» التي تمتد شرقاً من بلوزيوم (الفرما) المصرية إلى البحر الأحمر وهناك تتماس مع «العربية» الثانية التي يسميها «المباركة»: «توجد العربية ما وراء الفرع البيلوزي (للنيل)، وتمتد إلى البحر الأحمر، وإلى العربية، التي

اشتهرت بعطورها وثروتها واكتسبت لقب المباركة» Ultra Pelusiacum Arabia est, ad Rubrum Mare pertinens et odiferam illam ac divitem et beatae cognomine inclutam. وتعرف العربية الثالثة، إلى الشرق من البحر الميت، باسم «عربية البدو» (٥/١٥/٧٢: ab oriente Arabia Nomadum. والعربية الرابعة، يحدد بلينيوس موقعها على أحد شاطئي نهر الفرات الأعلى: «يكوّن (الفرات) الحد الفاصل بين العربية من جهة اليسار، وتُسمى إقليم الرُّها، واقليم كوماجينه من الجهة اليمنى، حيث يبلغ عرضه خمساً وأربعين قدماً (٥/٢/٨٥):

«Arabiam inde laeva, Orroeon dictam regionem, trischoena mensura dextraque Commagenen disterminat...»

هذا الوصف المعقد، كما هو الحال غالباً في أوصاف بلينيوس الجغرافية، مضلل إلى حد ما، فالعربية شرق بيلوزيوم (الفرما) - في وصف بلينيوس - أرض جرداء، ولا يُرى بها - كما يقول - سوى مرتفع جبلي واحد (يسمى كاسيوس Casius)، ويسكنها عدد من القبائل التي يورد أسماءها، من بينهم «أهل الخيام» Scenitae والأنباط Nabataei. كما يذكر مدينتين كبيرتين: إيلانه Aelana = أيلة على البحر الأحمر، وغزة على البحر المتوسط (الذي يسميه بحرنا in nostro mari، ٥/١٤/٦٨. ويذكر فيما بعد أن الحد الفاصل بين هذه العربية ومصر يقع على مسافة ٦٥ ميلاً رومانياً (٩٥ كم) شرقاً من بيلوزيوم (الفرما)، ويعود فيما بعد إلى القول بأن هذه العربية تفصل يهودية (Judaea) عن مصر (١٢/٤٦/١٠٠): Arabia Judaeam ab Aegypto disterminat ولكن عندما يشرع بلينيوس في وصف العربية وصفاً شاملاً، عندئذ فقط يمكننا أن ندرك أن أقاليمه العربية «الأربعة» هي في الواقع اثنتان فقط. فهو يقول (٦/٣٢/١٤٢) إن العربية ليست أقل مساحة

من سـائر الأمم، إذ تمتـد من إقليم الرّهـا Orroene في الشمال إلى السـاحل المصري بما في ذلك إقليم القبائل في وسط سوريا إلى جبـل لبنان (in media Syriae ad Libanum montem). هذه «العربية الكبرى» تشمل أيضاً «العـربية ذاتهـا» (ipsa Arabia)، أي «شبـه الجـزيـرة الممتـد بـين بحـرين، الأحمر والفـارسي. . وتشبه إيـطاليا مسـاحة وشكـلاً، ولهـا ذات الاتجـاه بحيث أنها تتمتع مثلها بـذلك المـوقع المبـارك (in illo Situ felix). وقد سبق أن تنـاولنا بالبحث سكانها من بحرنا (المتـوسط) إلى صحراء تـدمر» (٦/٣٢/١٤٣: a nostro mari usque ad Palmerenas solitudines). وبعد ذلك ينتقـل إلى ذكر شعـوب ذلـك القسم من العـربيـة: وهم البـدو، وأهـل الخيـام Scenitae، والأنبـاط الذين يسكنـون مدينـة تسمى البتراء (Nabataei oppidam incolunt Petram nomine، ٦/٣٢/١٤٤). وتقع البتراء عند ملتقى طريقين هامـين، أحـدهما يمتـد من غزة شرقـا، والثاني يتجـه إلى تـدمـر في الشـمال الشرقي. ويضيـف أن هناك من أهل البتراء مَن يشدون الـرحال إلى بلدة الفـرات غير بعيـد من الكرخـة Charax على الخليـج الفارسي، عـلى مسـافـة ٧٣٥ ميـلا رُومـانيـا (١٠٧٣كم) من البـتراء. أكـثر من هـذه المسـافـة من غـزة (٦/٣٢/١٤٥). وفي موقع آخر يقدر پلينيـوس محيط العربيـة «من الكرخـة Charax إلى إيـلانـة، «العقبـة» أنـه ٤٦٦٥ ميـلا رومـانيـا (٦٨١١ كم) (٦/٣٢/١٥٦).

أما «العربية الكبرى» عند پلينيوس، فمن الـواضح الآن أنها الأجـزاء الشمالية والغربية التي سبق وصفها، والأجزاء الباقية الجنوبية والشرقية التي لم يصفهـا بعد. وهـو يخص هذا الـوصف على وجـه التحديـد بقسم كبـير من الكتاب السادس (٣٢/١٤٧ ـ ١٦٢). وتمثل البلدة الهامـة الكرخـة Charax في نـظر پلينيوس الحـد الفاصـل بـين شـمال غـرب وجنـوب شرق العـربيـة. وفي

موقع مبكر من الكتاب (١٣٨/٣١/٦) يورد هذه العبارة الصريحة، «الكرخة» بلدة عند أوغل نقطة في الخليج الفارسي، ومنها تمتد العربية المسماة السعيدة (Charax oppidum Persici sinus intimum, a quo Arabia Eudaemon cognominata excurrit)، وينتقل بعد ذلك إلى وصف أقاليم العربية السعيدة / المباركة (Eudaemon) وقبائلها ومواطنهم من تيلوس / البحرين على الساحل الشمالي الشرقي حتى العقبة على الساحل الشمالي الغربي. ومن الواضح أن خَطًّا وهميًا يمتد بين الكرخة والعقبة يفصل بين «العربيتين» في عقل بلينيوس. ويتضمن وصفه للسعيدة / المباركة Eudaemon عرضا خضع لرقابة مشددة عن حملة عام ٢٥/٢٦ ق.م، التي قادها إيليوس جاللوس؛ وليس هناك أدنى إشارة عند بلينيوس أنها كانت مهمة انتهت إلى كارثة حقيقية؛ وفي الواقع، الإضافة الوحيدة التي يقدمها بلينيوس إلى تاريخ حملة جاللوس أنه يُورد قائمة (لم يوردها كاتب قبله) بالبلدان التي دمرتها الحملة الرومانية العسكرية. وإذا اقتصرت قراءتنا على رواية بلينيوس، فإننا سوف نخرج بالانطباع أن غزوة جاللوس للعربية كانت رحلة أنثروبولوجية، اعترضتها بين حين وآخر مجازر مدنية:

«الإكتشافات الأخرى التي تضمنها تقريره عند عودته هي: أن البدو يعيشون على الحليب ولحوم الحيوانات البرية؛ وأن القبائل الأخرى تستخرج الخمر من أشجار النخيل، على نحو ما يفعل الأهالي في الهند، ويحصلون على الزيت من السمسم؛ وأن الحميريين Homeritai هم أكبر القبائل عددا؛ وأن للمعينيين Minaei أرضا غنية في بساتين النخيل والأشجار، ووفرة في القطعان؛ وأن قبيلة قربان Cerbani وأهل حجر Agraei، وبصفة خاصة الحضارمة Chatramotitae مقاتلون متميزون؛ وأن قبيلة قرّ / قاره Carrei يمتلكون أكثر الأرض الزراعية اتساعا وخصوبة؛ وان السبئيين Sabaei

هم الأكثر ثراء نظرا لخصوبة غاباتهم في إنتاج الطيوب، ولما لديهم من مناجم الذهب، وأرض زراعية تعتمد على الري بالماء، وما ينتجون من عسل وشمْع؛ وسوف نتحدث عن طيوبهم في الكتاب المخصص لهذا الموضوع. ويغطي العرب رؤوسهم بعمامة، أو يسيرون بشعورهم مرسلة دون أن تُقصّ؛ ويحلقون ذقونهم ويطلقون الشوارب، ومنهم أيضا من يطلقون اللحى. والغريب حقا، هو أن نصف قبائلهم العديدة يعملون في التجارة ونصفهم الآخر يعيش من الغارة والسطو» (٦/٣٢/ ١٦١ - ١٦٢).

وبصفة عامة، يؤكد بلينيوس، أن سكان العربية السعيدة من أكثر الناس ثراء في العالم، فهم يبيعون ما يستخرجونه «من البحر والغابات» للرومان والفرثيين على السواء، ومع ذلك لايشترون شيئا (٦/٣٢/١٦٢). وليس هناك في «التاريخ الطبيعي» مثال آخر أكثر دلالة أن بلينيوس كان مشغولا باختلال ميزان المدفوعات، كما يُشغل به بعض علماء الإقتصاد اليوم. ومن الجلي أيضاً أنه كان واعيا لمغزى فشل جاللوس، رغم أنه مضطر إلى عدم التأكيد عليه إرضاء لحُماته من الأسرة الامبراطورية. ويشير بلينيوس فيما بعد (كما سيرد) إلى حملة عربية أخرى (expeditio Arabica) عام ١ م؛ إقترنت بشخص جايوس قيصر. ولكن عبارته الصريحة (٦/٣٢/١٦٠) أن جايوس «مجرد نظر إلى العربية من بعيد» (prospexit) تدل أن هذه الحملة أَمَرَ بها جايوس ولم يتولى قيادتها بشخصه. وواضح أن بلينيوس كان قادرا على أن يتحلل من الـتزمت الأخلاقي الروماني، إذا ما تطلبت الظروف منه ذلك، فروايته الوردية المشرقة عن حملة جاللوس الفاشلة نموذج رائع على الرؤية المخادعة.

يفيض كتاب «التاريخ الطبيعي» بالإشارات إلى «العربية» بإعتبارها مصدرا للعديد من المواد الطبيعية، ولكني لا أقصد هنا أن أقدم بيانا كاملا

بها. لعل بعض الأمثلة يكفي لإظهار ما كانت تمثله «العربية» من سحر لبلينيوس نفسه، ولمؤلفي المصادر التي استمد معلوماته منها. يذكر بلينيوس أن الدراسة التي كتبها الملك الموريتاني يوبا الثاني أوردت إشارة إلى رجل من العربية أعيد إلى الحياة (revocatum ad vitam) بواسطة نبات لم يذكر اسمه (١٤/٥/٢٥). وتتقاسم العربية مع الهند الشهرة في إمداد العالم «بمركّبات ووصفات سحرية المفعول» (Compositiones et mixturae inexplicabiles)، وأن «حتى للإلتهاب البسيط يُستورد الدواء من البحر الأحمر» (٥/١/٢٤). وتقف «العربية» على قدم المساواة مع فارس وإثيوبيا ومصر كموطن للمجوس من أرباب الحكمة يلتمس منهم المعرفة علماءُ الغرب من أمثال فيثاغوراس وديموقريطس (١٣/٥/٣٥). ومن المستغرب ألّا نجد الهند ضمن هذه القائمة.

بعض أنواع العلاج لأمراض مُعيّنة لها صلة بالعربية أو تأتي منها مباشرة. مسحوق للأسنان، كان يصنع عن طريق حرق حجر عربي في أفران (Arabus Lapis = رُخام الأونيكس؟)، ولكن إذا مزج بالكتان ووضع على ضمادة كتانية فوق موضع الالتهاب، فإن هذا المسحوق ذاته يشفي مرض البواسير (١٥٣/٤١/٣٦). ويورد بلينيوس، نقلا عن ديموقريطس، أن المجوس عندما يريدون استحضار الآلهة (deos evocare) يستعينون بنبات يسمى aglaophotis (ولعله الفاوانيا peony؟)، الذي ينمو في محاجر الرخام على الساحل الفارسي (أي الشرقي) «للعربية» (١٦٠/١٠٢/٢٤). وقد وُجد في قبرص نوع جيد من اللادن (ladanum)، دواء ضد الاسهال، ولكن نوعا أرقى (nobilus) من هذا النبات يوجد في «العربية». وبصفة عامة، قلما يذكر بلينيوس شيئا يتعلق «بالعربية» دون أن يكون له قيمة أو نفع ـ مع إستثناء واضح وهو الدودة الشريطية التي يقول إنها تصيب ذلك

الاقليم وكذلك مصر وسوريا وقيلقيا (١٤٥/١٢٩/٢٧). وتختص «العربية» بنوع من الزيتون يُفرز دمعة (lacrima) من سائل يستخدم بكثرة لإلتئام الجروح (٧٨/٣٧/١٢). ولكن يلاحظ بلينيوس في الفقرة ذاتها (على عكس ما سجله من صادرات فقط فيما سبق، ١٦٠/٣٢/٦) أن «العربية» تستورد عطورا (odores) رغم اشتهارها كمصدر للروائح العجيبة.

ولكن من بين كل ما تنتجه العربية، لاشيء - باستثناء المُرّ - أثار خَيال بلينيوس ومصادره، مثل خشب العُود. هناك في «التاريخ الطبيعي» خمس صفحات ونصف خصصت لتحديد موطن وخصائص وتجارة ذلك النوع من الخشب العجيب غالي الثمن (وصْف المرّ يُغَطّي ثلاث صفحات فقط). إن تناوله لموضوع العُود انتزع من بلينيوس اقرارا بأنه أجَّلَ حديثه عن القرفة ليورد بيانا عن «ثروة العربية والأسباب التي منحتها لقب السعيدة والمباركة» (١٢/٣٠/٥١: Arabiae divitias indicari conveniret causasque quae cognomen illi felicis ac beatae dedere)، ومع ذلك عندما ينتهي البيان بالثروات العربية ويقدم بلينيوس تصوّره للأسباب التي جعلت هذه البلاد النائية الغامضة تستحوذ على اهتمام العالم، تصبح لهجته لاذعة بشكل ملحوظ، فيقول لا توجد القرفة أو السليخة / قرفة الصين (casia) في العربية، «مع ذلك تسمى السعيدة. لقبٌ خادع لا تستحقه» (١٢(٨٢/٤١). وما السبب؟ «بذخ الإنسان هو الذي جعلها مباركة حتى في الموت» (Beatam illam fecit hominum etiam in morte luxuria) (الموضع نفسه). إن ما يُستهلك يوميا من العُود والمرّ في مراسم الدفن في أرجاء العالم يفوق كثيرا ما يقدم منهما على المذابح إلى الآلهة، ثم يضيف بلينيوس، كانت الآلهة من قبل (في الماضي الجميل) تقبل قربانا من بعض الملح - ولكن حينئذ كانت الآلهة أكثر رحمة بالإنسان. ولا ينبغي أن تسمى الأرض

العربية وحدها مباركة، بل ينبغي أن يسمى كذلك البحر، لأن ما فيه من اللآلىء ليس أقل أهمية من التوابل. «على أقل تقدير تمتص الهند والصين وشبه جزيرة العرب مائة مليون سستركيس سنويا من الامبراطورية الرومانية» (١٢/٤١/٨٤). ثم يقول إن رجلا مثل كاتون Cato كان لا شك ينتابه الفزع لمثل هذا الاسراف المعيب في الأموال.

مقدمة إسترابون «للجغرافية»

كذلك نجد التأكيد ذاته على البرجماتية التعليمية هو الاتجاه السائد في مقدمة استرابون لكتاب «الجغرافية». ليس هناك إهداء لنصير من الإسرة الامبراطورية، ولكنه يعلن بصورة منتظمة في الكتابين الأول والثاني أن «الجغرافية» دراسة جديرة بأن تحظى باهتمامات الفلاسفة، وأن نتائجها التطبيقية ينبغي أن تلقى عناية خاصة من جانب رجال السياسة والحكم (/١/١/ف ٢؛ انظر أيضا ١/١/١٦ ف٩). «فعن هذا السبيل» يضيف استرابون «يمكنهم (أي الساسة والدول) أن يباشروا أعمالهم بطريقة أفضل عندما يدركون مساحة الدولة وموقعها وخصائصها» (١/١/١٦ ف ٩). إن استرابون يرى البحر المتوسط في زمانه على أنه امبراطورية موحدة تحت حكم أغسطس الصالح، تماما كما تقبل بلينيوس وأيّد حكم الاسرة الفلاڤية في عصر لاحق. وفي الواقع إن استرابون حريص على أن يجعل قُرّاءه يدركون تماما ماذا يعني «على وجه الخصوص باصطلاح «المعمورة»»، (idi¯os Kalou-men oikoumen´en) (الموضع نفسه)، ولكن حتى إذا كانت «المعمورة oikoumen´e ضمن حكم واحد ودولة واحدة، فلا يترتب على ذلك بالضرورة أن جميع أجزائها معروفة جيدا بدرجة واحدة» (الموضع السابق). وهكذا فالدور الفعال للجغرافي هو أن يبحث وأن يدعم، وأن يرشد.

وكما كان بلينيوس، كذلك كان استرابون من أتباع تعاليم الرواقية، ولكنه كان اكثر صراحة في إعلانها، وخاصة حينما يتخذ موقفا مختلفا من

أحد كبار مصادره، وهو بوسيدو نيوس، الذي ينتقده لأنه أرسطى (٢/٣/٨ ف ١٠٤). وهو مثل بلينيوس، فقد سبق أن نشر مؤلفا في التاريخ، وفُقد كلية (١/١/٢٢ ـ ٣، ف ٣١؛ ٢/١/٩ ف ٧٠)؛ ولعل هذا يفسر التأكيد الكبير على التاريخ السياسي في كتابه «الجغرافية». وقد تناول هذه النقطة الأخيرة بإفاضة فرانسوا لاسر François Lasserre في دراسة حديثة مفيدة عن منهجية استرابون (ANRW II. 30. 1 [1982] 867 - 890).

ويشترك استرابون مع بلينيوس في حماسة للتناول الموسوعي (polymathia) في دراسة الجغرافية (١ / ١ / ١٢ ف٧). ولكن ذلك الكم الهائل من المعلومات كان يخضع في يدي استرابون لعملية مزدوجة من الانتقاء والتصنيف، ولا يحتفظ إلا بالمعلومات ذات العلاقة بالدراسة الجغرافية موضوع اهتمامه. ونتيجة لذلك، ما كان يمثل في نظر بلينيوس عنصراً مستقلا مثل غيره من العناصر الأخرى في دراسته الشاملة، كان عند استرابون يُرحّل إلى حاشية أو جملة اعتراضية. كذلك اتفق استرابون مع بلينيوس في النظر بإجلال إلى فترة سابقة في تاريخ المعرفة. فاسترابون، ومعه سابقون كثيرون، منهم (كما يقول) هيبارخوس نفسه Hipparchus يعتبرون هوميروس «مؤسس المعرفة الجغرافية» (١/١/٢ ف ٢: archiget´es einai T´es geographik´es empeirias). هنا نسمع صدى العصر البطولي، «فالشاعر» هو المثال للناثر، وما أشد الاختلاف بينه وبين بلينيوس. ولكن إطراءه لهوميروس ـ رغم صدقه ـ لفظي وممل، لا جديد فيه. إذ يحتل حيزا غير مناسب من المقدمة (١/١/٢ ـ ١٠؛ عشر صفحات) وكل ما يحققه ـ أو هكذا يبدو ـ أنه يتيح لاسترابون فرصة توجيه الإنتقادات إلى بوسيدونيوس Poseidonius (١/١/٧ ف ٤). ولكن الغاية

من عمله مذكورة بوضوح تام، وما تضمنته ـ على الأقل ـ كان لاشك يسر بلينيوس لو أنه اطلع على ما كتب استرابون:

> «.. لنُضف دراسة تاريخ الأرض إلى هذه المعرفة الموسوعية ـ أقصد تاريخ الحيوانات والنباتات، وكل ماهو نافع أو ضار مما ينتج في البر والبحر.. في الواقع، إن كل هذه الدراسات هامة كعوامل تمهيدية من أجل تحقيق المعرفة الكاملة. وإلى هذه المعرفة بطبيعة الأرض وأنواع الحيوانات والنباتات، يجب أن نضيف المعرفة بكل ما ينتمي إلى البحر؛ لأننا ـ من وجهة نظر معينة ـ برمائيون، ولا ننتمي إلى البر أكثر من انتمائنا إلى البحر». (١/١/١٦ ف٨).

ينتهي الجزء الأول الموجز والرسمي من مقدمة استرابون (الذي يمكن إعتباره بمثابة افتتاحية) عند ١/١/٢٢ ـ ٢٣ (ف ١٤)، وحتى هذا الجزء يزيد على ضِعْف طول مقدمة بلينيوس (أربع وعشرون صفحة مقابل عشر). وتنتهي الإفتتاحية بأمل أن يكون مؤلَّفه (Syngramma) نافعا لكل من يقرأونه ـ من رجال السياسة أو عامة الجمهور ـ واعداً بألّا يُثقل صفحاته «بالتوافه من الأمور عديمة القيمة». وبعد أسطر قليلة نجده يشير إلى مؤلّفه (Syngramma) على أنه «عمل كبير» Kolossourgia، ويطلب من القارىء أن يصدر في حكمه عليه كما يحكم على غيره من الأعمال الكبار، أي بالنظر إلى الكل وليس إلى جزئياته. مثل هذه العبارة تتضمن ـ عن غير قصد ـ تحذيرا للقارىء، الذي سيكتشف بعد قليل أن الكم يفوق كثيرا الكيف فيما يلي من صفحات. يحتل ما بقي من المقدمة بعد ذلك ٢٣٦ صفحة؛ ولحسن الحظ، معظم ما ورد بها لايستحق الذكر.

«العربية» عند استرابون

في وصفه «للمعمورة» يشبهها استرابون من حيث الشكل بالقميص (Chlamys) كما تبدو «في الخريطة الجغرافية» (٢/٥/١٣ ف ١١٨ : eis ton geographikon pinaka) . وسواء أكانت هذه «الخريطة» pinax (أشار إليها أيضا بعبارة «خريطة تقويم البلدان chorographikos pinax، ٢/٥/١٧ف١٢٠) هي في الحقيقة «الكرة الأرضية» Orbis Terrarum لماركوس أجريبا Marcus Agrippa أم لا، فاسترابون يرى أن قسما كبيرا منها يصور بلاد الشرق الأدنى. فهو يقول «يلي مابين النهرين الأراضي على هذا الجانب (الجنوب الغربي) من الفرات. وهذه هي جميع العربية المباركة Arabia Eudaemon، التي يحدها كل من الخليج العربي والفارسي، وجميع الأرض التي يسكنها أهل الخيام Skenitae وشيوخ القبائل Phylarchoi (التي تمتد إلى الفرات وسوريا». وعَبْر الخليج العربي (أي البحر الأحمر) يوجد إثيوبيون وعرب ومصريون، (٢/٥/٣٢ف١٣٠) ولا نكاد نظفر بوصف كامل لما يطلق عليه استرابون ثانية «العربية الكبرى» (Arabia pasa) قبل أن نصل إلى الفصل الثالث من الكتاب السادس عشر. هنا يصبح من الواضح فجأة أن استرابون جغرافي مكتبي، لأن معظم ما يورده بعد ذلك عن العربية وشعوبها مستمد من أعمال الآخرين، وخاصة إراتوسثنيس Eratosthenes وأرتميدوروس Artemidorus وبوسيدونيوس. والتجديد، الوحيد الذي يضيفه هو العرض التفصيلي لحملة إيليوس جاللوس (بفضل صداقته لجاللوس) ورواية شاهد عيان عن الحياة في عاصمة الأنباط، البتراء (بفضل صداقته للفيلسوف أثينودوروس Athenodorus).

تقع الأجزاء الشمالية المتطرفة من «العربية الكبرى» عند حدود الامبراطورية الفرثية، وكان «شيوخ القبائل من العرب» (T¯on Arabon hoi phylarchoi) حلفاء للرومان في المنطقة الحدودية قرب الفرات (١٦/١/٢٨ ف ٧٤٨). وفي مواضع أخرى يطلق استرابون على إقليم «عرب شيوخ القبائل» تسمية «ما جاور النهر» Parapotamia (١٦/٢/١١ ف ٧٥٣). أما المجموعة الأخرى من العرب «أهل الخيام من البدو Sk´enitae hoi nomades) في الإقليم ذاته فيغلب عليهم أن يكونوا حلفاء للفرثيين (ف ٧٤٨) ولهم صلة مع «رجال أهل الخيام» (andron Skenit¯on) الذين يسكنون الإقليم جنوب أفامية Apamene (ف ٧٥٣). ويضيف بعد ذلك أن هؤلاء «العرب وأهل الخيام» أقل تطورا سياسيا من السوريين، الذين يعيشون في إمارات منظمة كما هو الحال في أرثوزا Arethusa تحت حكم سامبسيكراموس Sampsiceramus. إن تمييز استرابون بين «العرب» و «أهل الخيام» يمكن أن يعني فقط ـ كما لاحظ عرفان شهيد ـ أن «العرب» كانوا مستقرين بينما كان الآخرون بدوا (انظر Rome and the Arabs [1984] 55,.n.19). ويؤكد استرابون هذه الثنائية حين يذكر فيما بعد أن «أهل الخيام» Skenitae يؤلفون «جماعات صغيرة في أقاليم موحشة بلا ماء، لا يكادون يزرعون شيئا، ولكن يرعون حيوانات مختلفة، وخاصة الجمال» (١٦/٣/١ ف ٧٦٣). ويصف الإقليم الذي يلي (جنوب وشرق) منطقة أهل الخيام بأنها «صحراء شاسعة» (er´emos polle)، وتليها جنوبا «العربية السعيدة المباركة». من الواضح أن ما يسميه استرابون «العربية الكبرى» يضم إقليم «السعيدة المباركة» في الجنوب وإقليم «شيوخ القبائل وأهل الخيام» في الشمال. ولكنه لا يذكر الحد الفاصل بين الاقليمين. وكما سبق أن لوحظ مرارا، ليس هناك ذكر للعرب الذين لاشك كانوا ـ في زمن استرابون ـ قد استقروا عند الواحة الكبرى في تدمر Palmyra، وعلى وجه

التحديد في المنطقة الصحراوية بين أفامية وحدود الفرات. فمن المؤكد أن نوعا من الاستيطان كان له وجود قبيل عام ٤٠ ق.م، حيث أن أبيانوس يذكر (الحرب الأهلية ٥/٩) أنها كانت هدفا لغارة فاشلة قادها ماركوس أنطونيوس. ويبدو أن استرابون، حتى حين راجع كتابه «الجغرافية» في بداية حكم تيبريوس، لم يكن يدرك أن روما كانت قد أخضعت مدينة القوافل هذه ضمن ممتلكات الامبراطورية. كانتِ «العربية» شرق دمشق أرضاً مجهولة Terra incognita بالنسبة لاسترابون، كما يبدو أنها كانت كذلك بالنسبة للمصدر الذي نُقِل عنه «لوح بيوتنجر» Peutinger Table الشهير. وكان من الممكن لراسم خرائط في العصر الأخير من الامبراطورية أن يخط الطريق الممتد بين دمشق إلى دُورة Dura (تل الحرير) مارا بتدمر كما هو موضح على نسخة العصور الوسيطة التي لدينا الآن، أمّا كوْن استرابون ولوح بيوتنجر يعكسان مصدرا مشتركا (أي خريطة أجريبا من عام ١٠ ق.م). فهو إحتمال مُحيِّر وجدير بالدراسة.

وكما فعل بلينيوس، يبدأ استرابون وصفه لداخل العربية السعيدة أولاً بملاحظة معالم ساحل الخليج الفارسي. فيتناول الميناء التجاري الكبير **هجر**(؟)/ ثاج(؟) Gerrha/ Thaj (انظر D.T.Potts. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 14 [1984] 87-91) جزر تيلوس/ البحرين Tylos وأرواد/ المحرق Arados، ومظاهر أخرى للساحل وما يتبعه في الداخل من أرض. يستمد استرابون معظم وصفه من مصدره الرئيسي، إراتوسثنيس (١٦/٣/٣-٦ ف ٧٦٦-٧٦٧). وواضح أن استرابون يقبل تقسيم اراتوسثنيس **العربية** إلى قسمين حيث أنه يطبقه عندما يسجل أسماء القبائل الكبرى. فالأنباط و«الشلوطيون» Chaulataeions **وأهل** حجر Agraeans،

جميعهم، كما وضعهم، اراتوستثنيس، في القسم الشمالي أو الصحراوي من العربية. «يلي هذه (القبائل) «العربية السعيدة»، التي تمتد مسافة ١٢٠٠٠ ستاديوم (٢٤٠٠كم) جنوباً إلى المحيط الأطلسي (هكذا)»، (١٦/٤/٢ ف ٧٦٨).

الصورة العامة للعربية السعيدة هي أنها إقليم استقرار قبلي كبير (من أبرزهم المعينيون والسبئيون)، ومزارع حيث تتوفر التربة والمياه، ورعي حيث لا يتوافران، ووفرة (كما عند بلينيوس) من الطيوب التي يشتد عليها الطلب في البحر المتوسط. وهناك ايضاً إشارات إلى العمارة ووراثة العرش والعادات والتقاليد ذات الأهمية الأنثروبولوجية (من أغربها عادة ختان الذكور) وجميعها لا ذكر لها عند بلينيوس (١٦/٤/٢ـ٢٠ ف ٧٦٨ـ٧٧٩). ولكن حينما يعود استرابون إلى الحديث عن الأنباط وعاصمتهم البتراء، يستخدم لغة تحدث في أذهاننا شيئاً من الخلط أو الارتباك في تحديد ارتباطهم بأي من العربيتين حسب تصوره (أو تصور اراتوسثنيس): «وأول الشعوب فوق (جنوب) سوريا الذين يسكنون العربية السعيدة هم الأنباط والسبئيون..» (Protoi d'hyper tes Syrias Nabataioi Kai Sabaioi ten Eudaimona Arabian nemontai..) (١٦/٤/٢١ ف ٧٧٩). ويبدو عند الوهلة الأولى أن ثمة تناقضاً في هذه العبارة، فقد سبق أن رأينا أن استرابون وافق على اعتبار الأنباط من سكان العربية الصحراوية، حيث وضعهم اراتوسثنيس من قبل. وأرى أن سبب الاختلاط لا يرجع إلى استرابون، أو مصدره، ولكن لأن مملكة الأنباط كانت تشتمل على أجزاء من العربية الصحراوية (اقليم النقب بفلسطين، ومعظم الأردن، وأقصى الجنوب السوري) وكذلك القسم الشمالي الغربي من «العربية السعودية» (إقليم الحجاز من السعودية ـ بالتأكيد قُرَيّة

Qurayya، والحِجْـر/ مـدائن صـالـح، وربمـا ديـدان/ العـلا ـ انـظر G.W.Bowersock, Roman Arabia [1983] 57,95 .

ويمكننا أن نجد تأكيداً لسيطرة الأنباط على الحجاز زمن استرابون في وصفه لحملة جاللوس (١٦/٤/٢٢ـ٢٤ ف ٧٨٠ـ٧٨٢) ففي عبارة صريحة يذكر استرابون أن الحملة وصلت إلى «ليـوكي كومي Leuke Kome في إقليم الأنبـاط» (eis Leuken Komen tes Nabataian ges) (١٦/٤/٢٣ ف ٧٨٠). كان موقع ليوكي كـومي (أي القريـة البيضاء) مثـار اختلاف طـويل، ولكن يبدو الآن أنه قد تم التعرف عليه على نحو مقبول عنـد موقـع عينونـة، إلى الشرق مباشرة لمدخـل خليـج العقبـة (انـظر M.L.Ingraham et al. Atlal 5 [1981] 76-78, L.I.Kirwan, Stud. Hist, of Arabia ii [1984] 55-61 and fmaps 5-5a). ولعل هذا القسم من الحجاز هو إقليم «النبطية Nabataea التي أشار اليها استرابون في وصفه للأقاليم والمستوطنات الساحلية على جانبي البحـر الأحمر. في أحد هذه المواقع يشير إلى مرتفع من الأرض تقوم عليه «صخـرة البـتراء (Petra) معقل الأنبـاط العرب» وبعـد ذلك بقليـل يورد (في معـرض تناوله لخليج العقبة): النبطية، بلد كثير السكان وغني المـرعى. كما يقيمـون على الجزر الـواقعة على مقربـة من الساحـل. وكان هؤلاء الأنبـاط في أول أمـرهم يعيشون حيـاة آمنة، ولكنهم فيـما بعد، مستخـدمين أرمـاثا، راحـوا ينهبـون بسفن أولئك الـذين كانـوا يبحرون من مصر ولكنهم لقـوا جـزاءهم عندما أبحر اليهم اسطول ودمر بلادهم. (١٦/٤/١٨ ف ٢٧٧).

سلوك القراصنة هذا، وما لحقه من عقوبة قاسية، كان معـروفاً أيضـاً للمؤرخ ديـودور الصقلي (٣/٤٣/٥) الـذي اعتمد، مثـل استرابـون، عـلى مصـدر سابق (عن الـروايتـين انـظر Bowersock, RA [1983] 20-21). عـلى هـذا النحـو كـان اسـترابـون وربمـا مصـادره أيضـاً محقـين في تصـورهم أن

«النبطية» في نهاية القرن الأول ق.م اشتملت على أجزاء من العربيتين. ولا يعني هذا أن اراتوسثنيس كان مخطئاً حين قصر نسبتهم إلى العربية الصحراوية Arabia Deserta، ففي زمانه، قرنان قبل استرابون، ربما لم تضم «مملتكتهم» أكثر من المنطقة حول البتراء. إن اهتمام استرابون الشديد بالأنباط لجدير بالملاحظة. ولا شك أن كثيراً من هذا الاهتمام يرجع إلى أن صديقاً شخصياً له أقام بينهم في عاصمتهم لفترة من الزمن. كما يدل هذا على أنهم كانوا أهم الشعوب العربية في عصر اغسطس. ويمكن التعرف على مقدار أهميتهم، ليس فقط مما يذكره عنهم استرابون، ولكن، على سبيل المقارنة، مما يذكره عن اخوانهم العرب في شبه الجزيرة.

إنه يتحدث عن البتراء في عبارات وردية: فهي آمنة، مزدهرة، منضبطة، راقية. ويصفها باعتبارها مكاناً يُستقبل فيه الفيلسوف بالترحاب، وحيث تلتقي فيه «بالعديد من الرومان وكثيرين غيرهم من الأجانب» (١٦/٤/٢١ ف ٧٧٩). يتصف الأنباط بالتدبر وحب التملك وحسن العشرة، ويعيشون في ظل حكام حكماء معتدلين. ولهم صلة قربى بالإدوميين، ولكن هؤلاء خُلعوا من بينهم منذ زمن بعيد، واعتنقوا اليهودية (١٦/٢/٣٤ ف ٧٦٠). يعبد الأنباط إله الشمس. ومملكتهم كثيرة الثمار (ما عدا الزيتون) وتعتز بثروتها من الحيوانات (ماعدا الخيل). ولقد رأى كثيرون في قول استرابون إن الأنباط يعاملون موتاهم مثل «الروث» شيئاً من التناقض في مواجهة الصورة الايجابية التي يرسمها عنهم. وقد أثبت رايت G.R.H.Wright حديثاً أن هذه الملاحظة عن عادات الدفن عند الأنباط (وربما كانت تقليداً بين نسبة ضئيلة من السكان) كانت نتيجة لسوء فهم (PEQ 101 [1969] 113-116; A.Negev, Nab. Arch. Today [1986] 69-72).

لم يكن استرابون على نفس هذا القدر من المعرفة فيما يتعلق بعرب شبه الجزيرة، ولعلهم لهذا السبب كانوا أقل أهمية بكثير. فهم جنود من نوع رديء وبحارة أسوأ، وأكثر ميلاً للبيع والشراء من القتال (١٦/٤/٢٣ ف ٧٨٠). وتتقوّم العربية السعيدة من خمس ممالك حيث الإنقسام الطبقي شديد التصلب، والمحاصيل الطبيعية هي أساس ثروتهم (للعُود والمرّ المكانة العليا). يصف استرابون مجتمعاً حيث يشترك رجال كثيرون في الزواج من امرأة واحدة، وحيث العلاقة الجنسية بين الرجل وأمه مباحة. وعقوبة الزنا هي الإعدام، ولكن في مثل هذه البيئة، يلمح استرابون، يصعب أن يرتكب الانسان الزنا.

وينتهي استرابون إلى القول: إن العربية محظوظة فعلاً. ولإثبات ذلك يُذَكّر القارىء (١٦/٤/٢٧ ف ٧٨٥) أن الاسكندر كان قد وضع خطة لغزو العربية عقب عودته من الهند (انظر P.Hogemann, Alex. der Grosse und Arabien [1985] esp. 120 ff.) كان الدافع إلى ذلك هو أن العربية رفضت أن ترسل سفراء إلى الاسكندر قبل الحملة على الهند وبعدها، وهي قصة سبق أن رواها استرابون (١٦/١/١١-١٢ ف ٧٤١). ونتيجة لذلك احتفظت العربية، وعلى وجه التحديد العربية السعيدة، باستقلالها، وبعزلتها، وسحرها وثروتها الطائلة. وحملة جاللوس الفاشلة التي يرويها استرابون (بعكس بلينيوس) بتفصيلاتها الأليمة «لم تضف في الواقع كثيراً لمعلوماتنا عن تلك البقاع، ولكنا - على أي حال - اكتسبنا بعض المعلومات القليلة» (١٦/٢/٢٤ ف ٧٨٢). ويلقي استرابون بكل اللوم لفشل الحملة على كاهل سُلَيْ النبطي الذي تولى مهمة المرشد epitropos (١٦/٤/٢٣ ف ٧٨٠)، دون تقديم أي مبرر لخيانة سُلَيْ. وهكذا أُنقذت العربية من الغزو مرتين، مرة بموت مفاجىء، وأخرى بخيانة غير متوقعة. هذا تقدير

موضوعي للموقف بشكل ملحوظ، وخاصة من شخص مؤيد للتدخل الروماني في الخارج. ويقف على النقيض من محاولة بلينيوس اليائسة للتمويه على فشل روما في إخضاع شبه الجزيرة العربية. ولم يكن بلينيوس أكثر وضوحاً في موقفه هذا كما في عبارته شديدة التفاؤل التالية:

«لقد قمنا بهجمات على العربية، وتوغلت ذراع روما داخل قسم كبير منها، ومن ثم حاز جايوس قيصر، ابن أغسطس، شهرة عظيمة». (التاريخ الطبيعي ١٢/٣٠/٥٥).

عبارة غريبة حقاً. ليس بها ذكر لجاللوس. وقد دُسّت العبارة في وسط حديث عن شجرة البخور.

مقدمة بطليموس «للجغرافية»

ظهرت الدراسة الأساسية لمقدمة بطلميوس منذ نصف قرن في كتاب Hans V. MZIK, Des Kloudios Ptorlemaios Einfuhrung in die darstellende Erdkunde (Klotho5 [1938])، وهو ترجمة ألمانية وتعليق على ك ك ١-٩/١/٢. ولقد أدرك مزيك Mzik بوضوح أن كتاباً قام بتأليفه عالم رياضي، يلزم أن تكون مقدمته النثرية محكمة البناء. وقائمة المحتويات التي كتبها بطلميوس تذكر بإيجاز ما سوف تتناوله الفصول الأربعة والعشرون في المقدمة، متنقلة من التمييز بين الجغرافية وتقويم البلدان «خوروجرافيا Chorographia» الى نقد دقيق لمنهجية مارينوس الصوري Marinus of Tyre إلى الاجراءات الواجب اتباعها خطوة بخطوة لعمل مصورات للأرض ذات شكل كرّي أو ذات خطوط مستقيمة على الورق. إنه عمل لرجل لا نكاد نعرف عنه شيئاً. وبعناية أطلق عليه عنوان «الدليل الجغرافي» Geographike Hyphegesis. ولم يكن هدفه أن يكتب جغرافية وصفية بالنثر، كما تقول الافتتاحية صراحة:

«الجغرافية هي محاكاة mimesis بالصور لكل العالم المعروف مع الظواهر المُتضمَّنة فيه. . إنها لخاصية تتفرد بها الجغرافية أن تُظهر المعروف من الأرض المسكونة باعتبارها وحدة في ذاتها، وكيفية وضعها وما طبيعتها، وتتناول تلك المعالم التي يرد ذكرها في وصف عام للأرض، مثل الخُلجان الكبرى والمدن العظيمة وكذلك الشعوب والأنهار الرئيسية. هذا بالإضافة إلى أنها تعالج من المعالم ما هو جدير بذكر خاص لجمالها». (١/١/١-٢).

وخلال هذا القسم بأسره من المقدمة يقارن بطلميوس ويقابل الجغرافية مع تقويم البلدان (خوروجرافيا Chorographia)، التي يقول (١/١/٢) انها تهتم بالجزئيات (المواني، المزارع، القرى) ولا تستخدم الرياضيات (١/١/٥). فعن طريق الرياضيات ينكشف للعقل الإنساني «أسمى وأجمل النظريات» (١/١/٧). هذه فكرة سائدة في كل المقدمة. ومع ذلك، فإن بطلميوس يدرك أنه بقدر ما يمكن أن تعيننا النظرية الرياضية لفهم العالم حولنا، يجب اختبار النظرية بشيء ملموس وتجريبي في الواقع. وهذا الشيء، ما هو إلا سجل الرحلات (historia periodike) أي «مجموع المعرفة المستقاة من تقارير أولئك الذين قاموا بفحص دقيق لأقاليم معينة» (١/١/٢). هذه المعلومات «على الطبيعة» غير قادرة بذاتها لقياس المسافات على وجه التحديد بين المواقع، لأن لا أحد يسافر بدقة رياضية، في تقدير بطلميوس. ولكن «مسالك» الرحالة، وخاصة تلك التي يستخدمها التجار الذين يسلكون الطرق المألوفة، قد تصلح أن تكون وسيلة لتحديد الإحداثيات الصحيحة على الخريطة. ويصدق هذا القول على الطرق البحرية كما يصدق على الطرق البرية (١/٢/٤).

ويضيف بطلميوس، «لقد إرتقت معرفة الإنسان بالعالم مع الزمن، ولزام على كل جيل أن يرتقي بسجلات العصور السابقة» (١/٥) ولذلك فهو يرى أن من مسئوليته الشخصية أن يراجع بعناية وأن يصوّب الأخطاء في المؤلفات الجغرافية لمعاصره الأكبر سنّا، مارينوس الصوري (١/٦ - ٢٠). ومن خلال انتقاداته لمارينوس نتبين منهجه هو في العمل، ويجب علينا هنا أن نوجز فقط ما يناقشه. يقول إن مارينوس اطلع على كل الأعمال الهامة للعلماء السابقين، وأدخل عليها التصويبات اللازمة، حتى أنه صوّب أخطاء في نشرات سابقة من كتابه هو (مارينوس). وقد رأى بطلميوس أن قيامه

بعمل خرائط تتبع النصوص أمر جدير بالتقدير. ولكن بقيت بعض المآخذ. فالعالم المعروف (على خريطة) مارينوس يمتد أكثر من اللازم في اتجاه الشرق والجنوب. علما بأن بطلميوس يقبل وحدة الحساب السائدة آنذاك وهي أن ١° من خط العرض (عند خط الاستواء) تساوي ٥٠٠ ستاد يوم (٩٢ كم). وهذا الرقم هو نفسه تقريبا لخط الطول عند خط الاستواء (١/٧/١). وكان مارينوس مخطئا في قبوله لمسالك رحلات حديثة على أيامه ـ في البر (رحلات سبتميوس فلاكوس ويوليوس ماتيرنوس من ليبيا إلى إثيوبيا) وفي البحر (رحلة ديوجينيس من أروماتا Aromata [جزر التوابل / إندونيسيا؟] إلى رابسوس Rhapsus [دار السلام، تانزانيا؟] باعتبارها تمثل المسافات الصحيحة (١/٨ ـ ٩) إلى أماكن متنائية على هذا النحو:

> تماما كما يلزم الشك بالنسبة لمسافات شاسعة الطول ونادرا ما يُرتحل عليها، ولم يتم اكتشافها كاملة، كذلك الأمر بالنسبة للمسافات غير الكبيرة والتي كثيرا ومرارا ما قطعها المسافرون، يبدو من الصواب أن نقبل صحة تقارير الرحالة عنها (١/١٠/٣).

هذه العبارة تتعارض مباشرة مع موقف مارينوس، الذي (حسب قول بطلميوس) لم يثق في المسافات التي يذكرها الرحالة من التجار (١/١١/٧). في بداية أحد فصوله (١/١٦) يوجه بطلميوس إنتقاده إلى مارينوس لسوء قياسه «لحدود الولايات» (tous ton eparchion periorismous) . وقد يبدو عند النظرة الأولى أن استخدام الاصطلاح ولاية eparchia له أهميته، نظرا لأنه في معناه السياسي المحدد يدل على وحدة إدارية. قد يعني هذا أن مارينوس ـ وكذلك بطلميوس ـ صوروا القسم

الروماني من المعمورة oikoumen´e على خرائط عن طريق رسم حدود الولايات. وربما فعل مارينوس ذلك. ولكن يتضح من سائر مقدمته أن بطلميوس تصور العالم الروماني على أنه يتكون من أقاليم جغرافية فقط، وفي ضوء هذا التصور يجب أن نقبل معنى أشمل لكلمة (ولاية) eparchia منطقة أو أقليماً بدلاً من مجرد ولاية. هذا الجانب من «الجغرافية» لم تتناوله دراسة مختصرة عن «ولايات» بطلميوس (A. Diller, C P 34 [1939] ٢٢٨ - ٢٣٨). فيما يتعلق بأقاليم يهودية Judaea وديكابولس Decapolis والعربية Arabia، كما سنرى كان بطلميوس يفكر أيضا في إطار من الوحدة العنصرية أو الثقافية كذلك.

هنا يجب أن نقول شيئا عن الإقليم الجغرافي الذي إنتزع من بطلميوس تعليقات لها أهميتها، ونقصد به شبه القارة الهندية. في الفصول ١٣ و١٤، وخاصة ١٧، يتحدث بإفاضة عن حساب المسافات والمواقع الصحيحة «لأننا نعلم الآن المزيد من التفصيلات الكثيرة فيما يتعلق بالهند، وخاصة تقسيمها إلى (ولايات) eparchiai.. وأجزائها الداخلية» (١/١٧/٤). مثل هذه العبارة لابد أنها تعكس شعور الإثارة في أيامه لأن الهند والشرق قد تم فتحهما ثانية أمام الأبحاث الجادة في الجغرافية ورسم الخرائط. كان هذا نتيجة مباشرة للاستغلال المركز للرياح الموسمية وظهور ذلك النوع من الكتب الملاحية فيما بعد، مثل كتاب «الملاحة في البحر الأحمر» Periplus of the Erythrean Sea المجهول المؤلف حوالي ٦٠ م. (سوف تصدر له ترجمة انجليزية جديدة مع تعليق بقلم ليونل كاسون Lionel Casson بعد عام أو عامين)*. في الوقت الذي كتب فيه بطلميوس،

* صدرت فعلا هذه الترجمة الجديدة ١٩٩٠، وفيها يقترح كاسون أن كتاب الملاحة وضع حوالي عام ٤٠م. (المترجم).

كان القول بزيادة المعلومات عن الهند يعني أن الأعمال الجغرافية، مثل كتاب مارينوس، كانت بحاجة إلى مراجعة مستمرة، مهما كانت حديثة الظهور.

الآن وقد رأينا شيئا من مجال بـطلميوس ومنهجـه، يبقى أن نبحث في هدفه. كان غاية مقصده من تجميع السجل المكـوّن «للجغرافيـة» هو تمكـين أي شخص على معرفـة كافيـة بالـرياضيـات من عمل مجمـوعة من الخـرائط الصحيحة (١/١٨). بالإضافة إلى:

> لقد بذلنا عناية خاصة لتقديم منهج أفضل في تعيين حدود جميـع البلاد (epi pason ton eparchion). فـأثبتنا المـوقع الخـاص بكل منها بالنسبة لخط الطول وخط العرض. وبعد ذلك سجلنـا المعلومات الهامـة عن شعوبها (ethn¯on) وعلاقـاتها الـواحدة مـع الأخرى. كما ذكرنا المهم من المـدن والأنهار والخلجان والجبـال، وغير ذلك من المعلومات التي يمكن أن تُظْهِر على الخـريطة ذاتهـا المسافات حيث تجدر معرفتهـا.. وعلى ذلـك نستطيـع أن نعرف فورا الموقع على وجه التحديـد لأي مكان بعينـه، ومواقـع البلاد ذاتهـا (T¯on eparchi¯on aut¯on)، وكيفيـة وضـع الـواحـدة منهـا بالنسبة لغيرها، وكيفيـة وضع كـل منها بـالنسبة للمعمـورة كلها (oikoumen´e) (١/١٩).

يتناول الجزء الأخير من المقدمة (١/٢١ ـ ٢٤) مناقشـة فنية في كيفيـة عمـل مصورات الأرض، ذات الشكـل الكرّى أو ذات الخـطوط المستقيمة، وسـوف لا نتوقف عنـدها كثـيرا. ولكن يجدر بنـا أن نلاحظ أن بـطلميـوس

يقبل (كما فعل مارينوس ومصدره الرئيسي) أن جزيرة رودس تمثل «موقع المواقع» Locus Locorum الذي يحدد اتجاه رسم الخرائط. فموقع الجزيرة يضعها بالضبط في مركز المعمورة Oikoumen´e، على مسافة واحدة من الجزر السعيدة (Canarias Islas) غربا ونهر السند شرقا، وعلى بعد واحد من ثولي Thul´e (جزر الشِتْلاند) شمالا ورأس براسوم Prasum Promontary (جنوب شرق إثيوبيا) جنوبا. كانت رودس في الواقع «السُّرة» Omphalos بالنسبة لمصَمّمي الخرائط طيلة العصور الكلاسيكية القديمة إلى أن إنتزعت مركزيتها العلمانية الأماكن المقدسة في القدس المسيحية وفي مكة الاسلامية.

لعل من المناسب أن نضيف أن دراسة مزيك للمقدمة تضمنت الفصول ٢/١ ـ ٩ (المرجع نفسه ٧٦ ـ ٧٨). أطلق بطلميوس على هذا الجزء من «الجغرافية» عنوان «مقدمة» Prologos. وهي تقدم وصفه للقارات الثلاث المعروفة له (أوروبا وافريقيا وآسيا)، والأجزاء المكتشفة حديثا في كل منها، التي يمكن حساب خطوط طولها وعرضها «من مجاورتها لأقاليم معروفة من قبل» (٢/١/٣). بعد ذلك يلاحظ فقط أن التوجيه الصحيح لخريطة ما، هو بوضع الشمال إلى أعلى / فوق والشرق إلى يمين المشاهد (٢/١/٤). بالنسبة لشخص عاش وعمل في الاسكندرية كان ذلك منطقيا. بعد ذلك يفرد بطلميوس الكتب الخمسة التالية (٢/١٠ ـ ٧/٣) لدراسة ما يسميه «الساترابيات أو الولايات» Satrapeiai ´e eparchiai (٢/١/٧).

«العربية» عند بطلميوس

في دراسة مفيدة نُشرت حديثا ضمن أعمال مؤتمر جغرافي (Geographie historique au proche- orient [CNRS] ed. by P.-L. Gatier, 1988: 47-53) لفت بَاوَرْسوك G.W. Bowersock الأنظار إلى حقيقة أن تَصَوُّر بطلميوس للعربية يختلف كثيرا عن التقسيم الثنائي الوارد عند استرابون وبلينيوس وما يماثله في الأعمال غير الجغرافية من القرنين الأول والثاني (يوسيفوس وديوسقوريدس وأبيانوس). يوجد في «جغرافية» بطلميوس ثلاث «عربيات» متميزة: الإثنتان التقليديتان (الصحراوية والسعيدة) ووحدة متفردة بذاتها العربية «الصخرية» Arabia Petraea. وتتطابق «السعيدة Felix» عند بطلميوس تماما مع المنطقة المماثلة التي يصفها استرابون وبلينيوس، بمعنى شبه الجزيرة كلها. بينما قسّم بطلميوس ما استقر العرف على تسميته «الصحراوية» Deserta ليقتطع تلك «العربية» الثالثة. «فالصحراوية» الآن هي مجرد تلك المنطقة المشرفة على الفرات والخليج الفارسي. وتحتل «العربية الصخرية» Arabia Petraea القسم الأوسط والأجزاء الواقعة في أقصى الغرب من «الصحراوية» التقليدية (من الجوف السوري Coele Syria الغريني جنوب دمشق إلى شرق الدلتا في مصر. كان هذا الاقليم الجغرافي حتى ١٠٦ م. يُكوّن مملكة الأنباط من العرب، ولكن في الوقت الذي كتب فيه بطلميوس كان يمثل الولاية الرومانية «العربية» Arabia وينتقل باورسوك إلى ملاحظة أن «العربية الصخرية»، التي لا مثيل لها قبل بطلميوس، لم يستخدمها سوى بعض كتاب لاحقين (أجاثيميروس [المشكوك بصحته] - Pseudo Agathemerus ومارقيانوس Marcianus الذان انتحلا صراحة ما شاءا من «جغرافية» بطلميوس. بينما أهملها جميع الآخرين (ديون كاسيوس Dio

Cassius وأميانوس Ammianus، والفقرات المتبقية من أعمال جلوكوس Glaucus وأورانيوس Uranius، ومختصر كتاب استيفانوس «الأخلاق» (Stephanus' Ethica) مؤثرين «العربيتين» التقليديتين.

كما أن تسمية «العربية الصخرية / بترايا» Arabia Petraea أمر لافت للنظر، والأمر الآخر الأجدر بالملاحظة هو حذف ذكر الأنباط من القبائل (آل فران Pharanitai ورَيْث Rhaith´enoi) أو أسماء أماكن القبائل (أرض سَرَاقة (؟) Sarak´en´e ومُنشية (؟) Mounchiatis) ضمن حدود «العربية الصخرية / بترايا». ويرى باور سوك أن هذا الصمت التام عن أي ذكر للأنباط أو «النبطية» Nabateaa «يجب أن ينظر إليه بإعتباره إنعكاسا معاصراً للحوار الدائر في القرن الثاني داخل أو بخصوص الشرق الأدنى الروماني» (ص ٥١). ويضيف بعد ذلك أن ذكر الأنباط غائب أيضا من فقرات جلوكوس التي تتناول أجزاء من مملكتهم المنقرضة. ونظرا لأن جلوكوس كان معاصرا تقريبا لبطلميوس، فلابد وأن الصمت فيما يتعلق بالأنباط كان متعمدا، وأن «لعنة» damnatio غير رسمية فُرِضت على دولة منقرضة» (ص ٥٢).

«الصخرية / بترايا» Petraea بلا أنباط، هي واحدة من النقاط ذات الطرافة في «العربية» الثالثة عند بطلميوس. نقطة أخرى جديرة بالملاحظة هي التوزيع الاقليمي لبعض البلدان والمدن، فمن الواضح أن إقليم «الصخرية ليس مطابقا للحدود السياسية لولاية العربية» Provincia Arabia . إذ يلاحظ باورسوك أن مدينتي جرش Gerasa وعمّان / فيلادلفيا Philadelphia اللتين كانتا متضمنتين في الولاية عام ١٠٦، يضعهما بطلميوس في قائمته الخاصة بمدن تلك المنطقة المحيرة «الجوف السوري» Coel´e Syria و«ديكابولس Decapolis [تعني العشر مدن] (١٨/١٤/٥). ولم تكن هاتان

المدينتان داخلتين في مملكة الأنباط؛ في حين أن مدينتين أخريين كـانتا ضمن مملكـة الأنبـاط خلـوص Elusa وكُـرْنُب / مـامبسيس Mampsis في صحـراء النقب، يضعهما بطلميوس في إيدوميـا (٥/١٥/٧). كلا المـدينتان كـانتا في الحقيقة ضمن ولاية العـربية الـرومانيـة. هكذا يبـدو أن بطلميـوس أراد أن يهمـل الوضـع السياسي في وقتـه فيما يتعلق بتصرف رومـا فيما كـان من قبل مملكة الأنباط ومثيلتها المنقرضة الديكابولس Decapolis (أيا كان المقصود بهذا الإصطلاح الأخير). يعكس استخدام إصطلاحات «الجوف السوري Coel´e-Syria والديكابولس» في كتاب «الجغرافية» محاولة بعض المـدن على أن تـظهر بمـظهـر الـوحـدة المستقلة أو عـلى الأقـل ذات الإدارة المنفصلة ضمن نـظام الولاية الشرقية. ونجد تعبـيرا أكثر قـوة لهذا المـوقف في العبارات المتمثلة في النقـوش الكتابيـة (انظر H.1. Macadam, Studies in the History of the Roman Pnovince of Arabia, B.A.R, Inter. Series # 295 [1986] 68-79) هــذه الاصطلاحات، سواء «الجوف السوري والديكابولس» أو إقحـام إيدوميـا في «العربية الـرومانيـة» أو «العربيـة الصخريـة» ذاتها Arabia Petraea، لا يمثـل الموقف السياسي الحقيقي في منتصف القرن الثاني في الشرق الأدنى.

كـان الأنباط أحـد شعبين هـامـين في الشرق الأدنى قهـرتهـما الجيـوش الرومانية في فترة حياة بطلميوس. بعد أن خضع الأنباط لـروما بفـترة وجيزة قام الامبراطـور هادريـان (١٣٥م.) بسحق ثورة إبن كـوخبا Bar Kokhba. ويجدر بنا أن نـلاحظ أيضا، كيف يعـرض بطلميـوس لتصرف الرومـان مع المنطقة اليهودية. فما كان يسمى «اليهـودية الـرومانيـة» Romana Judaea منذ ٦م. (باستثناء حكم أجريبا الأول Agrippa I) أُدْمج في «فلسطين الرومانيـة» Roman Palaestina عند نهاية ثورة اليهود الثـانية، وقـد أقر بـطلميوس هـذا الوضع تماما تحت عنوان «فلسطين» Palaestin´e (٥/١٥/١)، وهي التسميـة

الإدارية التي إختارها هادريان نفسه دون شك. ولكن عنوان الفصل والعبارة الافتتاحية تضيف بعناية بالغة التعبير التفسيري «أو سوريا اليهودية» Ioudaia Syria وخُصص قسم كامل من الفصل (٥/١٥/٥) للحديث عن «يهودية» Judaea باعتبارها واحدا من ستة أقسام تكون فلسطين. وبطريقة مماثلة تقريبا يذكر بطلميوس تغيير اسم المدينة عاصمة اليهود، «جيروسالم التي تسمى الآن إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina» (٥/١٥/٥). هنا نجد ذكراً صريحا لليهود، بينما يشار إلى الأنباط فقط بطريق غير مباشر لإتصالهم بعاصمتهم السابقة. تعكس هذه المقابلة ولا شك إلى حد ما وجود جالية يهودية كبيرة في الاسكندرية على زمن بطلميوس، والندرة النسبية للانباط بين المجموعات العنصرية المقيمة فيها.

بالنسبة لكل من اليهود والأنباط، نلاحظ أن الإسم الرسمي لولايتي إقليميهما المستقلين فيما مضى، يعكس محاولة مقصودة من جانب الرومان لتحييد الخريطة السياسية للشرق الأدنى. أطلق تراجان على مملكة الأنباط التي أُخْضِعت اكثر الأسماء العرقية عموميةً، ومع ذلك يمكن اعتباره صحيحاً: «العربية» Arabia. وفي حالة يهودية بعد هزيتها مرتين أعاد هادريان اسم مكان لم يستخدم منذ هيرودوت (١/١٠٥)، اسما يُذَكِّر بالفلسطينيين، الأعداء التقليديين لليهود في الأعصر السابقة. كان استخدام «باليستينا» Palaestina أو سوريا الفلسطينية Syria Palaestina إهانة متعمدة للشخصية اليهودية في «المعمورة». (cf. idem RE Supp. XIII [1973] col. 405 M.Avi- Yonah, The Holyland 114) ; oikoumene، وهي اساءة تمكن بطلميوس من أن يخفف من وقعها إلى حد ما بأن يقابل بين «فلسطين» ومصطلح من عنده وهو «سوريا اليهودية» (Judaean Syria). وهكذا اجتهد بطلميوس في الحالتين أن يعدل الطابع عديم الشخصية لاسم الولاية بأن

ألحق به اصطلاحا أو صيغة تستثير ثقافة وشخصية الشعوب القديمة التي كانت سلالتها على أيامه يسكنون العربية الرومانية وفلسطين الرومانية. ويمكن أن نلاحظ أنه لم تكن هناك حاجة لمثل هذا الجهد في داكيا (٣/٨ـ ٩) التي أُدمجت كولاية (بعد حملتين عسكريتين كبيرتين) في نفس الوقت التي أخضعت فيه النبطية. وبالمقابل نجد اسلوب بطلميوس في الفصل الذي يفرده لداكيا Dacia في غاية الدقة والتوازن وخال من أي عاطفة.

وفي حالة إصطلاح «العربية بترايا / الصخرية Arabia Petaea» كانت الصياغة التي استحدثها بطلميوس تسمية شديدة المهارة، فلو أنه أشار إلى المملكة القديمة تحت اسم العربية النبطية، لربما اعتبر ذلك خطأ تاريخيا وغير مقبول سياسيا. وكما أن اسم «العربية الرومانية» Arabia Romana ليس له معنى. فإن استخدام «العربية بلا نعت يصفها قد يدل على قبول الواقع السياسي الذي فرضته روما. «العربية الصخرية / بترايا Arabia Petraea» تعبير يُذَكِّر بمملكة الأنباط من خلال عاصمتهم الشهيرة العظيمة «البتراء»، التي منحها تراجان منزلة «متروبولس» metropolis، وشُرّفت بعد ذلك باللقب الامبراطوري «هادريانية Hadriane». وربما أمامنا هنا إشارة خفية إلى أن بطلميوس قرأ وصف استرابون للحياة في البتراء (انظر أعلاه)، أو ربما كانت الشهرة الباقية للمدينة معروفة عن طريق تجار الاسكندرية الذين تاجروا مع البتراء عبر الفرما / بيلوزيوم Pelusium. ومهما كان الأمر، كان انتقاء بطلميوس لكلمة «بِتْرايا» / الصخرية بارعا ومعبرا. أما كونها لم تستمر كتسمية مقبولة لهذا الجزء من العربية، فليس مستغربا، إذ لم تكن البراعة والدلالة المعبرة من الصفات التي تميزت بها التقاليد الجغرافية في نهاية التاريخ القديم؛ خريطة «مادبا» استثناء مذهل. كان هناك شيء من الموقف الانساني في شخصية بطلميوس الرياضي، ذلك العالم الذي اتصف ببرود

الطبع وصرامة العقل والذي ترك أثرا بالغا في التفكير العلمي العربي والأوروبي (O.A.W. & M. Dike, The Geog. Mag. 57 [1985] 544-549). ومما يبعث على السعادة حقا أن نلمح قبساً من ذلك في «الجغرافية».

ولا يصف بطلميوس «العربيات» الثلاث في موضع واحد من «الجغرافية»؛ على العكس إنها ترد الواحدة بعد الأخرى، مع تنقلنا جنوبا وشرقا من فلسطين، وشمالا إلى مابين النهرين / الجزيرة (Mesopotamia)، وفي اتجاه الجنوب الشرقي إلى بابل، وعلى امتداد الخليج الفارسي، وأخيرا إلى شبه الجزيرة العربية. الوصف الذي يقدمه لإقليمي «بترايا / الصخرية Petaea و«الصحراوية» Deserta موجز وفي نقاط محددة، ولا يتطلب أي من هذه الوحدات سوى نبذة شديدة الاختصار، باستثناء «السعيدة» F.elix، كما سنرى.

يقدم بطلميوس (١٦/٥) «العربية الصخرية / بترايا Petraea» بعد وصفه «إيدوميا» مباشرة. حدودها موضحة بعناية: مصر إلى الغرب سيناء وخليج العقبة إلى الجنوب، «السعيدة» Felix على مسافة إلى الجنوب، والصحراوية Deserta إلى الشمال والشرق. وتصل الدقة عند بطلميوس إلى درجة أنه يحدد بخطّيْ الطول والعرض موقع إلتقاء حدود العربيات الثلاث معا: على وجه التحديد عند ٧٠° شرقا و ٣٠ر٣٠° شمالا (١/١٦/٥ ـ انظر الخريطة بعد الملحق). ولا تشمل «بترايا / الصخرية» إقليم الحجاز، التي اعتبرها استرابون ـ كما رأينا من قبل ـ جزءا من مملكة الأنباط. ولكن مصطلح «الولايات» eparchiai عند بطلميوس ـ كما لاحظنا من قبل ـ يمثل تصورات جغرافية أو إقليمية أكثر من وحدات سياسية. ولا ينبغي أن يُفَسّر عدم ذكر الحجاز في «بترايا» (الصخرية Petraea عند بطلميوس باعتباره بيّنة

علـى أن الإقليم لم يكن في يوم من الأيـام جزءا من «النبـطيـة» Nabataea.
وبـالمثل، لا يمكن أن يتخـذ دليلا أن ولايـة «العربيـة الـرومـانيـة» لم تشمـل
الحجاز، لأن بترايا / الصخرية لاتتطابق بدقة عـلى حدود الـولاية كـما عينها
تراجان. ولقد إجتهد داڤيد جراف David Graf مؤخـرا وبعنف في أن يبرهن
أن الحجاز لم تدخل ضمن «ولاية العـربية» (Geog. Hist. du proche- orient
171-211 [1988]). فـإذا صح أن الإقليم Sarakene مشتق من قبيلة تسمى
سراقـة (؟) Sarakenoi («الجغرافيـة» ٦/٧/٢١ - وتقع تمـامـا في الحجـاز)،
فيبدو أنها القبيلة الوحيـدة في «العربيـة الصخريـة / بترايـا Arabia Petraea
التي ورد ذكــرهـا في المصــادر المتـأخــرة. ولكن كلمـة Saraceni في العصر
البيـزنـطي اسم جنس، مـا زال غـير مؤكـد الاشتقـاق (ضــد رأي جـراف
D.F.Graf. أنظر M. O'Connor, Byzantine Studies 4 [1977] 59-66). ولعل
إتفاقها اللفظي مع Sarakenoi عند بطلميوس مجرد مصادفة.

يبلغ مجموع ما يسجله بـطلميوس في إقليم بـترايا (الصخـرية Petraea
ثماني وعشرين بلدة ومدينـة، مرتبـة جغرافيـا من الجنوب الغـربي إلى الشمال
الشرقي. ومن المعلومات الصحيحة، إقتران العاصمة بُصرى Bostra بالفرقة
الرومانية في حاميتها، «القورينية الثالثـة» IIII Cyrenaica التي كانت من قبـل
إحدى فرقتين في حامية مقامة قرب الاسكندرية. تعتبر هذه واحدة من أمثلة
متعددة يقرن فيها بطلميوس بين أسماء الأماكن والجيش الروماني (انـظر مثلا
ملاحظاتـه على بعض المـدن البريـطانية، ٢/٣، ٨، ١٠، ١١، ١٣). من
أسـماء الأماكن الثـمانية والعشرين لم يمكن التعـرف بدرجـة يقينية عـلى أربعة
فقط، هي مـاجـوزا Maguza، سـاروتثـه Saruttha، مســادا Mesada، أدرا
Adra. والتعـرف المقـترح لكــل من «مـاجــوزه» ,RE 14.1 [1928] col. 521
Maguza) ومســادة (RE 15. 1 [1931] col. 1071) لا يتعــدى محض تخمــين.

وبلدة «أدرا» Adra، كان ألويس سبنجلر Aloys Spengler قد عرفها بموقع واحة الأزرق (Die alte Geographie Arabiens [1975] par. 221) ولكن نقشا لاتينيا من قلعة الأزرق نشر حديثا يدل على أن الاسم القديم للمكان كان دَسْيانس Dasianis (O.L. Kennedy & H.L.MacAdam ZPE 60 [1985] 101-102). أو بَسْيانس Dasianis (M.P. Speidel, Historia 36 [1987] 217-218). وربما كانت «أدرا» ببساطة تكرارا لموقع أدرا Adra في «الجوف السوري والديكابولس» Coele- Syria & Decapolis (٥/١٤/١٨)، وكلاهما يمكن أن يكونا من مشتقات أدراما Adrama (حديثا الدرعا) في باتانيا Batanaea (٥/١٤/٢٠ - انظر MacAdam, Studies [1986] 4-6). ولقد اقترحتُ أن ساروتثة Saruttha ربما كانت أم الجِمال في حوران بالأردن (مرجع نفسه ١٦ - ١٧).

يَحُدُّ العربية الصحراوية Arabia Deserta عند بطلميوس ما بين النهرين / الجزيرة Mesopotamia في اتجاه الشمال (بما فيها الفرات)، وبابل في اتجاه الشمال الشرقي، وسوريا والعربية الصخرية / بترايا Petraea في اتجاه الغرب، والعربية السعيدة Felix في اتجاه الجنوب. وتعترض سلسلتان من جبال - وهمية - الحدود الشمالية والجنوبية. وكما هو الحال في مواضع أخرى من «الجغرافية» (مثل وسط شمال إفريقيا) توضع مثل هذه الجبال ببساطة كعلامات تقليدية على إمتداد الحكم الروماني أو المعرفة الرومانية بالاقليم. ليس هناك ذكر تحت موضوع «العربية الصحراوية» Deserta، كما في استرابون وبلينيوس، للجزر إمام الشاطىء قرب الحد الساحلي مع الخليج الفارسي. ويُضمنها بطلميوس في معالجته «للعربية السعيدة» (انظر مايلي). ويذكر ثماني قبائل عربية، ست منها غير معروفة في أي مصدر آخر. قبيلة «الكوشب»، (قوشب) Kauchabenoi معروفة بهجاء مختلف (شوشب / خوخب Khaukhabenoi) في النقوش اليونانية من جنوب شرق سوريا

(MacAdam, Studies [1986] 130#21). والقبيلة المسماة حجر Agraoi، لابد أنها القبيلة بذات الاسم عند استرابون (٢/٤/١٦) وبلينيوس (١٥٩/٣٢/٦).

هناك سجل بأسماء تسع وثلاثين بلدة في ترتيب جغرافي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. منها اثنتان فقط يمكن التعرفُ عليهما بثقة: Thapsacus ثبساكوس / الرقة (؟) على الفرات (Dumaetha, دُومة الجندل / الجوف (الشمالي) في صحراء النفود في العربية السعودية) وقد اقترحتُ مؤخراً أن توضع أسماء أربعة أماكن أخرى (Banatha, Artemita, Arrade, Obaera) على إمتداد وادي سِرحان في شمال غرب العربية السعودية بين واحة الأزرق ودُومة الجندل Dumaetha (MacAdam, Geog. hist. du proche- orient [1988] 55-75) وحتى إذا أضفنا هذه الأسماء للإسمين اللذين تم التعرف عليهما بثقة فما نزال عاجزين حيال أسماء الثلاثة وثلاثين مكانا الأخرى ـ ولقد استطاع كل من كورت فشر Kurt Fischer في طبعة موللر M¨uller الناقصة «لجغرافية» بطلميوس (Vol.I.2 [1901] 1011-1017) وألويس موزل Alois Musil في مسحه الأرضي لهذا الاقليم (Arabia Deserta [1927] passim) أن يعثرا على أسماء أماكن حديثة تتفق مع كثير من الأسماء في سجل بطلميوس. لم يلتفت كل من فيشر وموزل إلى إحداثيات الخريطة التي يقدمها بطلميوس، ولكنهما اكتفيا بمطابقة الأسم الوارد في «الجغرافية» مع اسم حديث يشبهه صوتا. في بعض الحالات كان الظن معقولا، مثل اسم Aurana أورانا عند بطلميوس يحتمل أن يكون وادي حوران في شمال شرق الأردن. ولكن ليس هذا بأسلوب صحيح للعمل. فهو يهمل أحد مبادىء منهج بطلميوس الأساسية التي

أوردها في المقدمة: يمكن تعيين موقع كل مكان على الأرض بدقة حسب إحداثيات مبنية على ما نعرف من مسافات ونقاط ثابتة ذات صلة بها.

وعلى ذلك يجدر بنا أن نأخذ ما يقوله بطلميوس أخذاً جاداً. لقد تعلم ذلك هو نفسه نتيجة لخبرته مع مصادر أخرى، ولعل مارينوس Marinus أكثرها إحتمالا. يُظهر استرابون وبلينيوس من الجهل المطبق بالأطراف الشرقية من العربية الصحراوية Arabia Deserta بمقدار ما يَظهر في لوحة بيوتنجر الشهيرة Peutinger Table. هناك مصدر آخر يذكره بطلميوس في مقدمته وهو تقارير الرحالة والتجار. ونظرا لأن أسماءه التسع وثلاثين ـ عند تعيين مواقعها على رسم بياني تنقسم إلى تجمعات ثلاثة من البلدان، فإن ذلك يدل دلالة كافية أنه لم تكن هناك عشوائية في حسابات بطلميوس. ولا مفر من وقوع اختلافات هجائية في المخطوطات المتعاقبة، وطبعة كاملة متقنة فقط من «الجغرافية» يمكن أن تقدم القراءات الموثقة المطلوبة. ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نأمل أن كثيرا من البلدان الست والثلاثين تقريبا، التي يمكن التعرف عليها، سوف يمكن أخيرا تعيين مواقعها بدقة، أو ـ على أقل تقدير ـ تحديد أقاليم أماكنها الحديثة.

وعندما ننتقل إلى وصف بطلميوس لإقليم «العربية السعيدة» (٦/٦ ـ ٧) تواجهنا مشاكل أقل وضوحا في حديثة عن «الصحراوية» (Deserta) و«الصخرية» (Petraea). وأوّل هذه المشاكل هو النص. تتوقف نشرة موللر غير الكاملة من «الجغرافية» عند الكتاب الخامس (وهو مالا يلاحظه ماكس كاري Max Carey في تعليقاته المضافة إلى H. F. Tozer'S History of Ancient Geography[2] [1935] xxxii) ولذلك لزم لقراءة نصوص الكتاب السادس، الذي يشمل «العربية السعيدة» Arabia Felix الاعتماد على طبعات رديئة للغاية ـ ترجع إلى ستة قرون مضت تقريبا ـ من أعمال نوبّه

Nobbe، و ويلبـيرج وجراسـوف Wilberg/ Grashof. وهناك بـارقـة من أمـل تتضـح من بعض الاهتمام الحـديث بأجـزاء أخـرى من الكتـاب السـادس. وبعض أقسام الكتاب السـابع؛ حـول موضـوع إصدار نص كـامل جـديد، انظر الملحق.

الفصـل الذي يعقـده بطلميـوس عن «العربيـة السعيـدة» مُقحم بـين منـاقشتـه لكـل من «كَـرمـانيـا الصحـراويـة» Carmania Deserta وكَـرمـانيـا Carmania، تمـامـا كـما أن فصـولـه عن «الصخـريـة» (بـترايـا Petraea و«الصحـراوية» Deserta يفصـل بينهـا مـابـين النهـرين Mesopotamia. ومن الواضح فورا أنه كان تحت يد بطلميوس كمٌّ هـائل من المعلومـات عن شبه الجزيرة العربية، يفوق كثيرا مـا كان لـديه عن أقسـامها الأخـرى. ويدفعنـا ذلك فورا إلى التساؤل عن مصادره، حيث أن نص بطلميوس ـ كـما لاحظ حديثًا نَيْجل جروم .N (Proceed. Sem. For Arab. Studies 16 [1986] 65-75) Groom ـ يمثل أوراقًا أعيدت كتابتها مرات بمـادة جغرافيـة يصل بعضهـا في القِدم إلى بداية العصر الهللينستي. وليس هنا مجـال تناول مسـألة المصـادر، ولكن لابـد من التأكيـد على أن وصف بـطلميـوس للعـربيـة السعيـدة اكـثر تفصيلا من الوصف الذي يقدمه عن أي قسم آخر في العربية كلها.

ويتقـدم «العـربيـة السعيـدة» وصفٌ لأقـاليمهـا السـاحليـة (وعـددهـا خمسة)، وأجزائها الداخليـة (بلا أقسـام)، وأخيراً الجـزر في الخليج العـربي (أي البحر الأحمر) والخليج الفارسي. وكلا المجموعتـان من الجزر مختلطتـان كل الإختلاط، كما هو الحال في «التاريخ الطبيعي» لبلينيوس؛ انظر بـالنسبة لــلأخــير S.B. Miles, JRAS ns 10 [1978] 157-172; H. von Wissmann, Osterr. Akad. d. Wiss., phil- hist. kl. Sitzungsberichte 324 [1977] 40, n.60 ـ أنا مدين لدانييل بوتس Daniel Potts بهذين المرجعين. وليست هـذه

المجموعات من الأسماء سوى نسبة قليلة من قائمة طويلة من أسماء الأماكن المسجلة للعربية السعيدة. وفي كثير من الحالات نجد صفة مميزة تلحق كل اسم من الأسماء، عدا ما كان تجمعات سكانية قليلة الأهمية. وهناك تحديد للمعالم الجغرافية يشمل الثغور، الموانىء، الأنهار (أي الوديان)، الخلجان، الرؤوس الأرضية، السواحل، الجزر، الجبال. وهناك أيضا، حسب قول بطلميوس (٦/٧/٢٠) «أربعة جبال مجهولة الأسماء anonyma»، ويذكر إحداثياتها بدقة.

يشتمل سجل المنازل السكانية على ١٥١ منزلا. يصف كثيرا منها بأنها قرى (komai)، وعددا قليلا منها بلدان (poleis) وعددا أقل بأنها «مدن أسواق» (emporia). ويصف ستًّا من المدن الداخلية بأنها «مدن عواصم» (metropoleis). ويبدو أن هذا التمييز يرجع إلى حجمها وأهميتها الاقتصادية، وهذا هو السبب في أن بعضها، وربما جميعها، كانت مراكز إدارية، أي «عواصم مقاطعات». وقد أمكن منذ زمن وعلى نحو مقبول التعرف على خمس منها: مارا Mara (مأرب)، نجارا Nagara (نجران)، سبّاثه Sabbatha (شبوه)، ميفا Maepha (ميفأة)، سَبِفار Sapphar (ظفار). وبالنسبة للسادسة، ماوكوسموس Maocosmos، اقترح جروم Groom (المرجع نفسه ٦٨ ـ ٦٩) قرية الفاو. كما تميزت ثلاث مَحلّاتٍ ساحلية بصفة «مَلَكِيّة» Basileia: راڤانا Ravana، كرْمان Karman، ساوة Sawa وليس من الواضح ماذا يعني بطلميوس بكلمة «ملكي» basileion؛ فربما كانت مثل هذه المواضع فيما مضى خزائن ملكية. فبلدة نيوجلا Neogilla (في إقليم البخور، على الساحل الشرقي الأوسط ـ انظر الخريطة) يصفها (٦/٧/١١) بأنها قاعدة بحرية epineion. وإن عدم ذكرها في كتاب «الملاحة في البحر الأحمر» Periplus مجهول المؤلف يمثل مشكلة (حول موقعها انظر RE XVI. 2

col. 2401 [1935]) كما يوصف ميناء «العربية» (حديثا عدن) على الساحل الجنوبي الغربي بأنها «سوق» emporion. هذه هي «العربية السعيدة Eudaemon Arabia حسب كتاب «الملاحة في البحر الأحمر» Periplus (فقرة ٢٦) التي يقال إنها قبل عصر مؤلفها «بوقت قصير» كانت قد هوجمت أو دُمرت (Katestrepsato) بواسطة «أحد القياصر». ولقد اقترح مومسن (R¨omische Geschichte 4 V [1882] 611-612 esp. n.2) أن جايوس قيصر هو الذي هاجم هذا الميناء. وقد أفاض تشارلزوور (M.P. Charlesworth, CQ22 [1924] 94-100) في تقديم هذه الفكرة ذاتها، ـ ومن الغريب ـ دون أن يذكر مومسن (ولا يَرِد ذكره أيضا في الحديث عن «العربية السعيدة» Eudaemon Arabia (في RE VI. 1 [1907] cols. 890-891 كما أهمل رأي مومسن إهمالا تاما شوف: W., A. Schoff, The Periplus of the Erythrean Sea [1912] 115-116؛ وإن اعتراض ولزلي K. Wellesly على مهاجمة عدن على أنها «خرافة» غير مقنع (Par. del Passato q [1945] 401-405). والموضوع لم يحسم بعد، ولكن سواء أمر «قيصر» أو قاد هجوما على الميناء، أو لا، فقد تعرض ميناء العربية السعيدة Eudaemon Arabia للدمار، وإلا (كما لاحظ مومسن بذكاء) لما وصفت في كتاب «الملاحة..» Periplus بأنها مدينة polis أصبحت قرية Kome. وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد مع تومسن J.O.Thomsen (History of Ancient Geography [1448] 296)، أن ذكر بطلميوس للميناء بأنه «سوق» emporion يدل على أنه قد استعاد نشاطه في منتصف القرن الثاني. فنحن في الواقع لا نعرف مصدر معلومات بطلميوس، وعلى أي حال ليس كتاب «الملاحة» Periplus.

وفي مثل كثرة هذه المنازل نجد قبائل وشعوب العربية السعيدة. فسجل أسمائها يبلغ ستا وخمسين، أي نحوا من خمسة أضعاف عدد

القبائل في الصحراوية والصخرية مجتمعين. ولم يقتصر الأمر على ذكر أسمائها ولكن حدد أماكنها أيضا. فتسكن مجموعة من خمس منها الإقليم الشمالي من الخليج العربي؛ كما تسكن مجموعة أخرى من ثلاث بالقرب من الخليج الفارسي. أما الثماني والأربعون الباقية فمنتشرة في أرجاء داخل شبه الجزيرة، فمن أقصى الشمال (أهل الخيام Scenitae، «سراقة»؟ Sarakenoi، ثمود Thamoudenoi وعبر القسم الأوسط (معين Minaei، سبأ Sabaei، عُمان Omanitai) إلى أقصى الجنوب (ظفار Sappharitae ونشق؟ Ascitai). ويرتبط ذكر سراقة بثمود (ذات الذكر الباقي في المصادر الاسلامية) في منطقة، كما ذكرنا آنفا، يجب أن تكون الحجاز. ويدل هذا على أن بطلميوس كان يدرك، باعتباره اسكندريا، أن المنطقة الغربية من سيناء التي يسميها «أرض سراقة» Sarakene، ربما اشتقت اسمها من القبيلة التي نزحت فيها بعد في اتجاه الجنوب الشرقي إلى العربية السعيدة.

هناك عدة محاولات للتعرف على العديد من اسماء القبائل والأماكن في العربية السعيدة عند بطلميوس، لعل تشارلز فوستر كان من أكثر من أقدموا على هذه المحاولة حماساً وأقلهم أهلية Charles Foster, A Historical Geography of Arabia II [1844] 209- 276) وتبقى نتيجة عمله مثالا على روح التفاؤل المذهل لدى الدارسين من رجال الدين في العصر الفكتوري المبكر، ولكنها لا تقاس بتلك الدراسات الجادة كالعمل العظيم الذي قام به شبرنجر Sprenger, Die alte Geographie Arabiens [1875]، وهو عمل مازلنا نجني ثماره إلى الآن. وما يزال هذا العمل الأخير هو الأساس الذي قام عليه التعرف على معظم أسماء الأماكن العربية في موسوعة Realencyclopadie. ولقد حدث شيء من التقدم في عملية التعرف حديثاً بنشر الجزء الأول من «تقويم العربية» (حروف A - E(: Gazetteer of Ara-

bia: A Geographical and Tribal History of the Arabian Peninsula (1979)، قامت بنشره S.A. Scoville ؛ وقد أشارت في مقدمة هذا الجزء إلى السجلات السابقة بأسماء الأماكن العربية؛ انظر أيضا تقديرها الخاص لهذا العمل وتاريخ تجميعه PSAS 12 [1982] 73-8 .

إن وجود خرائط حديثة صحيحة أمر أساسي، ومما يبعث على التفاؤل أن نذكر أن سلسلة خرائط جديدة (بمقياس رسم ١ : ٥٠٠٫٠٠٠) تقوم بإصدارها الآن وزارة النفط والموارد المعدنية في المملكة العربية السعودية. وقد صدر منذ ١٩٧٢ خمس لوحات، وقد تم عمل خطة لنشر إثنتى عشرة لوحة أخرى على الأقل. ويعتمد عمل هذه الخرائط على صورة مأخوذة بالقمر الصناعي مع مضاهاتها بمسح مماثل على الأرض، وسوف تفوق هذه السلسلة كل ما عداها. إن الجمع بين الخرائط والتقويم السعودي Gazetteer سوف يقدم في النهاية عونا عظيما لأولئك الذين يعكفون على دراسة خرائط بطلميوس ونصه. العنصر الثالث اللازم - وهو نص موثوق منه لكتاب «الجغرافية»، مازلنا ننتظره.

الخلاصة

من بين التقارير الثلاثة التي تم بحثها هنا في العربيـة القديمـة، واحد فقط - وصف بـطلميوس - هـو الـذي يُقـدم لنـا مـا يمكن ان نـطلق عليـه خـلاصة و / أو خـاتمة. فـالعـرض المبـاشر في «الجغـرافيـة» «للسـاتـرابيـات والأقـاليم» ينتهي بوصف (تـابروبـانه) Taprobane (حـاليـا سري لانكـا) في ١٣/٤/٧. ويـلي ذلك مجمـل لما تم انجـازه (١٤/٤/٧)، وعـرض وصفي (١/٥/٧ - ١٦) لخـريـطة العـالم، ثم عـرض وصفي (١/٦/٧ - ٧) لمُصَـوَّر كُـرّي للأرض، وأخـيرا شرح تدريجي (جميـع ك ٨) لمـراحـل كيفيـة تصميم خرائط لكل من الأقاليم الثلاثة المسكونة من الأرض. وقد سبق أن تعـرض للشـك منذ زمن بعيـد النصف الثـاني من ك ٧ وجميـع ك ٨ وأنهما ليسـا من عمل بطلميوس نفسه (انـظر على سبيـل المثال) A. Diller, TAPA 67 [1936] 238).

بقي أن نقدم تقويمـا، ولو مختصرا، لـلإنطبـاعات التي أحـدثتها هـذه التصورات الثلاثة المختلفة عن العربية وشعـوبها. ولابـد أن نبدأ بـإثبات أن التقارير الثلاثة كلها من عمل رجال لم تطأ أقـدامهم - بقدر مـا نعلم - أي بقعة من أرض «العربية».

وقد رأينا أن وصف استرابون جاء متأثرا بروايات شاهدي عيان لبتراء الأنباط والحملة العسكرية إلى العربية السعيدة. وكـلا الموضـوعين مستمـدان من أناس معروفين شخصيا للمؤلف. فالصورة العامة عن الأنباط المصطبغين بالهيلينية، حلفاء روما، تبدو أفضل عند مقارنتهم بعرب القبائـل التقليديـين

المستقلين في شبه الجزيرة. فالغـزوة الرومـانية إلى داخـل العربيـة، التي كان الهـدف الواضـح لها ضرب مـراكز التجـارة في أقصى الجنـوب، فشلت فقط بسبب الخيانة. حول دوافع وتـواريخ أحـداث هذه الحملة انـظر S.E. Side-botham 45 (1986: 590-602). وليس هناك دليل أن استرابون قام بمراجعة ما كتبه عن العربية، الذي لابد قد تمت كتابته في عام ٢ ق.م أو قبل ذلـك. وإذا كـان قد علم بـوقـوع حملة ثـانيـة (بـالبحـر أو بـالـبر) ضـد «العـربيـة السعيدة»، فلم يضفها عندما قام بمراجعـة الأجزاء الأخـرى من «الجغرافيـة» في الفترة ١٧ ـ ٢٣م. تقريبا.

أما وصف العربية عند بلينيوس فهو شديد الـذاتية وواضـح التأرجـح بين النقائض. فتقسيمة العربية إلى «صحراوية» (Deserta) و«سعيدة» (Felix) يحتفظ بتقليــد نشـأ في العصر الهللينستي واتبعــه اسـترابــون. فهــو يصف «العربية» كما يراها عالم طبيعي، ولكن هنا وهناك يتخلل العـرض «العلمي» إحساس من المرارة والاحباط. ولا زال الفشل الذي منيت به حملة جاللوس يلقى بظلاله الكثيفـة على أفكـار بلينيوس، الـذي كان نفسـه وقت الكتابـة يتـولى قيادة عسكـرية. وبـدلا من أن يحول لـومه للفشـل من جـاللوس إلى «الحليف» النبطي (كما فعل استرابون)، نجد بلينيـوس يهمل الهـزيمة، وعـلى سبيل التعويض يقحم خلال فقراته عن العربيـة إشارات إلى نصر عسكـري سجله جـايوس قيصر أثنـاء حملة هذا الأخـير إلى الشرق (انـظر حـول هـذا الموضوع F. E. Romer, TAPA 109 [1979] 199-214) ويـرد ذكر الأنبـاط فقط باعتبارهم واحدا من عدة تجمعـات قبلية، وليس هنـاك محاولـة للمقارنـة أو المقابلة بينهم وسائر العرب في شبه الجزيرة العربية، ويُظهـر بلينيوس إهتـماما أكـبر بالعـرب التدمـريين (٥/٨٨ ـ ٨٩) الـذين كانـوا في أيامـه حلفـاء لهم أهميتهم على الحدود الشرقية المضطربة.

أخيراً هناك العرض الهيكلي الذي يقدمه بطلميوس عن العربية، كاملا مع الخرائط. فالأنباط الذين قدمهم استرابون باعتبارهم مملكة حسنة النظام ومجتمعا مثاليا، والذين اعترف بلينيوس بوجودهم على الأقل، نجدهم عند بطلميوس قد نُحوا جانبا تحت صفة «الصخرية» / بترايا «Petraea»، ويظهر أن إصطلاح «العربية بترايا / الصخرية» إختلاق خيالي مثل إصطلاح «بونتوس كابادوكيكوس Pontus Cappadocicus (٥/٦/٥؛ . انظر (A.H.MJones, CERP 2 [1971] 428 n. 45). والسجل بأسماء القبائل والأماكن، وخاصة في العربية السعيدة، أكثر شمولا من سجل استرابون وبلينيوس مجتمعين.

ليس هناك من دليل أن بطلميوس استخدم أيًّا من بلينيوس واسترابون كمصدر للمعلومات عن العربية. كان من المتوقع بكل تأكيد أن يرجع بلينيوس الى استرابون، ولكن غياب اسم هذا الأخير من قائمة مراجع بلينيوس الشاملة يمكن أن يعني فقط أن «جغرافية» استرابون لم تكن معروفة له. وهكذا أصبح لدينا في الواقع عن «العربية» ثلاثة تقارير مستقلة على مدى قرن ونصف من الزمان، وهو أمر هام في ذاته، إذ تقدم لنا هذه الموضوعات رؤية شاملة ذات أبعاد ثلاثة، قد لا تتوفر لنا على نحو آخر.

ولا نحصل على مثل هذه الصورة الشاملة عن العربية مرة ثانية قبل العصور الوسطى الاسلامية، حين قام ياقوت (١١٨٠ ـ ١٢٢٩ تقريبا) بعمل معجمه الجغرافي، الذي أصبح المرجع الأساسي لِلعصر الوسيط. ولكن واضعي الخرائط من أمثال البَلخي (حوالي ٨٥٠ ـ ٩٣٤) والاصطخري (قرن عاشر) والادريسي (قرن ثاني عشر) هم الذين خلفوا لنا اكثر السجلات وضوحا. تَمثّل العمل الكبير للبلخي (مفقود الآن) في خريطة للعالم من عشرين لوحا مع شروح إيضاحية. وليس من الواضح مقدار ما

هنـاك من تـأثـير مبـاشر من العصر الكـلاسيكي القـديم، من المعـروف أن الكندي، استاذ البلخي، أمر بعمل ترجمة عربية لجغـرافية بـطلميوس (انـظر EI 2 I [1960] 1003).

كذلك قام الاصطخـري بعمل خـريطة للعـالم مع تعليق، وهـو عمل يتداخل (ويُكمل) «الأطلس الاسلامي» الـذي بدأه البلخي. وقـد بقيت الى الآن خريطة الاصـطخري، ومن الـواضح أنـه لم يحاول أن يقـدم مسافـات صحيحـة، أو معـالم جغـرافيـة أو حـدود سيـاسيـة. وليس هنـاك دليـل أن الإصطخري تأثر سواء بمناهج أو خرائط العصر اليوناني الروماني (انظر EI 2 IV [1978] 222-223).

ونجد اختلافا واضحا في نص الإدريسي وخـريطتـه العالميـة، بما فيهـا الجزء الذي كثر استنساخه عن الشرق الأدنى. وكان عمل الخريطة بناء عـلى تكليف من روجار الثاني ملك صقلية النورماندي، وتم انجازها في ١١٥٤. بالمقارنة مع الاصطخري، كان الإدريسي مغرما ببيان المعالم المكانية (وخاصـة الجبال. كما أن ولعه بالألوان والتفصيل الشديد يتمثل بقوة في تصويره لعـالم البحر المتوسط وخـاصة العـربية. ومـرة ثانيـة ليس هناك دليـل أن الإدريسي عرف أو استخدم تقليـدا غير عـربي سابق في رسم الخـرائط (انظر EI 2 III [1971] 1032-1033)).

لم يتجدد الإهتمام بأعمال استرابون وبلينيوس وبطلميـوس إلا في عصر النهضـة الأوروبيـة. ولكن بـطلميـوس وحـده حينئـذ ـ بتـأثـير من الكنيسـة الكـاثوليكيـة الرومـانية ـ هـو الذي سيـطر عـلى التفكـير العلمي الأوروبي، وخاصة في عمل الخرائط. فقد أصبح كتابه «الجغـرافية» وخـاصة الخـرائط، المقياس الذي قيست بـه خرائط العصر الـوسيط عن الشرق الأدنى. ولم يتم

القيام بعمل تجديد حقيقي في علم الجغرافيا قبل القرن التاسع عشر تقريبا [لعل المقصود هنا رسم الخرائط (المترجم)].

ملحق

بطلميوس: كتاب الجغرافية ك ك ٦ ـ ٨

«بصرف النظر عما تميز به بإعتباره رسالة علمية»، ظل كتاب «الجغرافية» لبطلميوس واحدا من أشهر المؤلفات في موضوعه، وربما كان له من التأثير ما يفوق أي عمل جغرافي آخر. وبسبب طابعه العلمي الواضح، ونظراً لأنه يغطي مساحة شاسعة من سطح الأرض (إثنين وثلاثين ولاية / إقليما في أوروبا وثماني في إفريقيا وأربع وأربعين في آسيا، بما في ذلك ٨٠٠٠ مَعْلما من أماكن وأنهار وجبال.. وغيرها)، أثار إهتمام العلماء والباحثين من مجالات مختلفة في حقول العلم والدراسة من جميع أرجاء العالم». (W. H. Stahl, Ptolemy's Geography: a Select Bibliography (1935) 5.).

دون أن يحاول أن يبلغ حد الكمال، استطاع استال Stahl بسهولة تجميع قائمة من ١٥٠٠ كتاب وبحث (لم يكن هناك مفر من تكرار بعض العناوين حول جوانب من «الجغرافية» تم نشرها منذ القرن الثامن عشر. وإنه لمن الغريب أن هذا العدد الكبير من أجيال الباحثين قنعوا بالتعامل مع نص لم يحظ سوى ما يزيد قليلا على نصفه بالنشر في طبعة نقدية بالغة الدقة.

عندما توفي كارل موللر (انظر حاشية في النهاية) في ١٨٩٤، ترك تحقيقه الكبير «للجغرافية» غير كامل، كانت الكتب ١ ـ ٣ قد نشرت في ١٨٨٣؛ والكتب ٤ ـ ٨ قد تم التخطيط لصدورها في مجلدين آخرين؛ مع مجلد إضافي خاص بالخرائط. وحين حضرته الوفاة كان موللر قد بلغ ك ١٥/٥. فأكمل صديقه وزميله كورت فيشر Kurt Fischer ١٦/٥ وتوقف عند هذا الحد (انظر تقديم فيشر لعمل موللر: Claudii Ptolemaei Geographia, vol. I Pars 2 [1901] i-ii). ظهر هذا المجلد، مع ملحق بمجلد مختصر للخرائط في العام نفسه.

كان المقصود أن تحل طبعة موللر محل الطبعات السابقة لكل من ولبرج F. G. Wilberg / جراسهوف C.H.F. Grashof بعنوان Claudii Ptolemaei Geographia (1838-45)، غير كاملة في ست كراسات متضمنة ك ك ١ ـ ٦؛ ونوبّه C.F.A. Nobbe (١٨٣٣ ـ ١٨٤٥؛ ط ٢ ـ ١٩٠٣)، كان هذا العمل الأخير (ولا يزال) النشرة الوحيدة الكاملة المطبوعة. وحسب المقاييس النقدية اللاحقة لا يمكن اعتبار هذين العملين نشرات نقدية، كما أن طبعة ولبرج / جراسهوف أصبحت بالغة الندرة. لقد دفعت قدرة موللر الضخمة على العمل وتكوينه العلمي المتميز (من بين أفضل أعماله Geographici Graeci Minores = GGM, Fragmenta Historicorum Graecorum = FHG) إلى مراجعة أربعين مخطوطة (بعضها جزئية جدا) «للجغرافية»، «ولكنه لم يتمكن من استخدام أقدمها جميعا المعروفة باسم [Codex] Urbinus [Graecus 82]، وهي المصدر الأول للجزء الأكبر من المخطوطات الأخرى، بسبب عدم وجودها في موضعها بمكتبة الڤاتيكان» (A. Diller, CP 34 [1939] 228) وسوف يدرك تماما وقع هذا القول كل من أخبره أمين مكتبة أن كتاباً نادراً «مفقود».

وقد أدى الإهتمام بشبه القارة الهندية بعد الحرب العالمية الأولى إلى ظهور دراسة جديدة لنص بطلميوس L. Renou, La geographie de Ptolemee: L'Inde (VII. 1-4) الذي طبع عام ١٩٢٥، كان هذا تحقيقا جديدا للنص مع تقويم نقدي بالقراءات apparatus وترجمة فرنسية. وبعد أقل من عقد واحد ظهرت الدراسة الضخمة لجوزيف فيشر Joseph Fisher لخرائط بطلميوس: أربعة مجلدات Claudii Ptolemaei Geographicae (1932)؛ وقد تضمنت (مجلد ٢ جزء ١) صورا للنص الكامل من مخطوطة الفاتيكان «Codex Urbinus Graecus 82». وفي ذلك العام ذاته طبعت ترجمة انجليزية للنص الكامل «للجغرافية»، في مجلد فاخر ولكن معيب، من عمل ستيفنس L. Stevenson, The Geagraphy of Claudius Ptolemy (متضمنا مصورات لخرائط من مخطوطة إبنر Ebner التي ترجع إلى حوالي ١٤٦٠). وقد اعتمدت الترجمة على «مخطوطات يونانية ولاتينية وطبعات محققة هامة من نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر» (في صفحة العنوان)، وليس به أي مصور لهذه المخطوطات ولا تقويم نقدي بالقراءات. لم يحظ عمل ستيفنس بترحيب حقيقي من النقاد، قارن العرض اللاذع الذي كتبه أوبري دللر Aubrey Diller (Isis 22 [1934/35] 533- 539) مع عرض هايد W.W. Hyde (AJP 54 [1933] 294-295). وبعد سبع سنوات أخرى ظهرت أول محاولة شاملة، وكاملة بالنسبة لزمانها، لحصر صعوبات المخطوط؛ كان هذا هو عمل بول شنابل: Paul Schnabel, Text und Karten des Ptolemaus (1939).

ولم تتجدد دراسة أي جزء من نص الكتاب السادس منذ ولبرج / جراسهوف ونوبّه إلا مؤخرا، حين قام رونكا في ١٩٧١ بنشر عمله: I. Ronca, Ptolemaios Geographie 6. 9-21 (Ostiran und Zentralasien) (شرق

إيران ووسط آسيا)، وفيه يقدم رونكا تحقيقا جديدا للنص اليوناني مع تقويم بالقراءات وترجمتين ألمانية وانجليزية. ومن سوء الحظ أنه لا يورد ذكرا لأحدث دراسة شاملة «للجغرافية» قام بها إيرش بولاشيك Erich Polaschek, Ptolemaios als Geograph, RE Supplementband X (1965) cols. 680-833. منذ خمس وخمسين سنة مضت عبّر هايد W.W. Hyde (AHR 28 [1932/33] 727) عن أمله في أن يخصص المجلد الثالث المرتقب صدوره حينئذ من طبعة توبينر لأعمال بطلميوس لكتابه «الجغرافية». وللأسف حين صدر المجلد الثالث (١٩٤٠) خُصص لمباحث بطلميوس في التنجيم (١/٣ : Tetrabiblos) والفلسفة (٢/٣ في المعرفة epistomology) ومن دواعي السخرية أن تقوم طبعة اللوب Loeb في العام ذاته بإعادة طبع نص التويبز عن التنجيم (باسم Tetrabiblos) مع ترجمة إنجليزية.

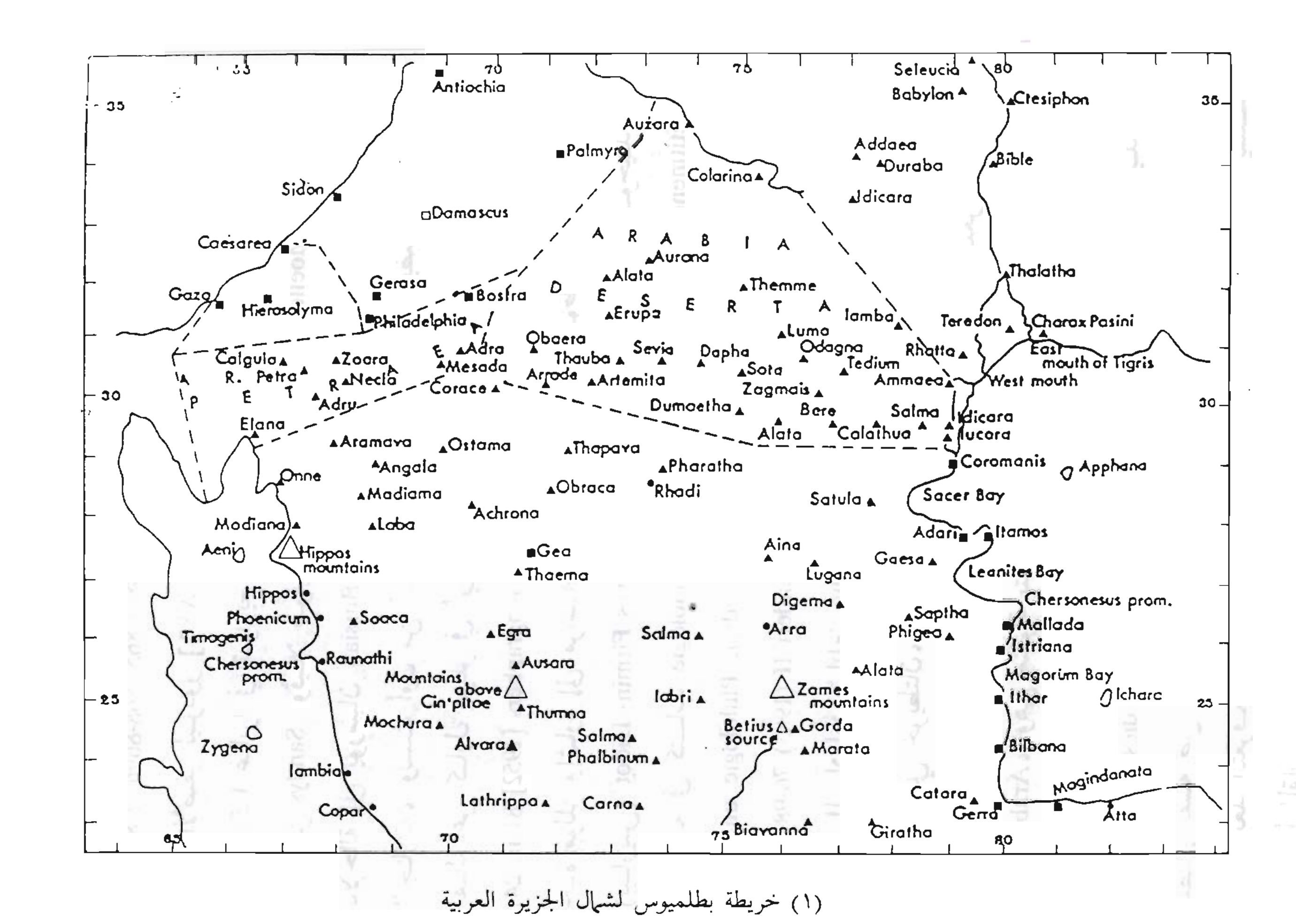
وما تزال «الجغرافية» تنتظر طبعة تامة التحقيق، وهي التي دعى إليها مؤخرا أوتو نويجباور Otto Neugebauer: «على مدى أربعة قرون، استمرت خلالها الدراسات الكلاسيكية تتحدث عن التراث الثقافي للعالم القديم، ولم يمكن للآن اصدار تحقيق موثوق به للنص اليوناني». (A History of Ancient Mathematical Astronomy [1975] vol. I Pt. 2 935). ربما تجد هذه الدعوة استجابة مع نهاية هذا القرن. على أقل الاحتمالات ان تحقيقا نقديا للنص الخاص بالعربية السعيدة وحده قد يصلح لأطروحة دكتوراه، ويمثل إضافة قيمة في دراسة الشرق الأدنى القديم.

ملحوظة إضافية:

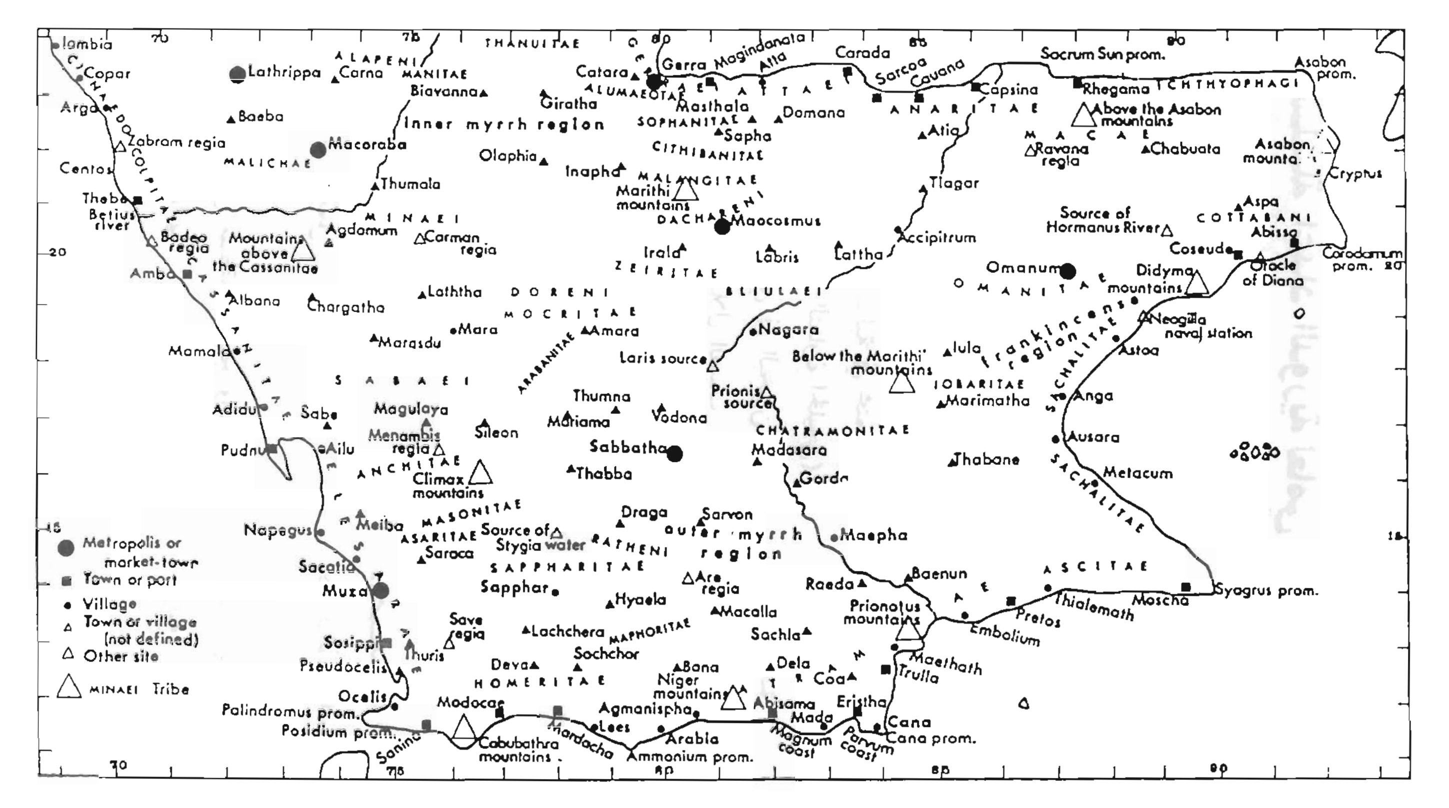
ما زال كارل موللر Karl (also Carl or Charles) M¨uller (١٨١٣ - ١٨٩٤) شخصية مغمورة بين مؤرخي وفيلولوجي القرن التاسع عشر.

كـانت قد ظهـرت على مـراحل مقتـطفات مقتضبـة من سيرتـه العملية حتى سبعينيـات القرن التـاسـع عشر في C. Bursian's Geschichte der Klassischen Philologie in Deutschland II (1883) 865; 868-869n.3; 898-899 (وهنـــا ذُكــر أخـوه الأصغر ثيـودور [١٨١٦ ـ ١٨٨١]، من رجـال العلم أيضـا). وذُكـر مـوللر ذكراً عـابرا في تـواريخ الـدراسات الكـلاسيكية المتـأخرة (مثـل أعمال سـانديـز Sandys وقيـلا مـوفـتز ـ مـوللنـدورف Wilamowitz- Moellendorf) بالإحالة إلى بورسيان Bursian. ليس من اليسير تفسير ذلك بالنظر إلى أهمية إنجـازاته، ولست أول من أدرك ذلـك، فقد قـال دِللر أيضا «لم أعـثر عـلى مقـالة عن كـارل موللر في أي مصـدر للسير» (A. Diller, The Tradition of the Minor Greek Geographers [1952] 81 n. 24). ونجـد أن تـواريـخ عن حياة موللر وإشارة إلى مراسـلات له في ملف في مخطـوطات فـيرمان ـ ديـدو (ببـاريس) Archives Firmin- Didot هي المعلومـات الجـديـدة الـوحيـدة عن سـيرتـه في كتــاب P. Petitmengin, «Deux tetes de pont de la philologie almande en France» in M. Bollock et al. (eds.), Philologie und Hermeneutik im 19 Jahrhundert II (1983) 76-98 passim (أنــا مــدين بهــذه الإشارة إلى إدوارد تشابلين Edward Champlin).

فيما يلي خريطتان، الأولى لأقاليم «العربية الصخـرية» Arabia Petraea و«العربية الصحراوية» Arabia Deserta والأطراف الشمالية «للعربيـة السعيدة Arabia Felix، وهي منقولة بتصريـح من ن. جروم: N. Groom, «Eastern Arabia in Ptolemy's Map», Proceedings of the Seminar For Arabian Studies 16 (1986) 73 والخـريطة الثـانية لإقليم جنـوب «العربيـة السعيـدة» من المصدر نفسه ص ٧٤. [رأينا الإبقاء على الخريطتين لبـطلميوس، نـظراً لأنه لم يتم بعد التعرف على كثير من المـواقع، ومُختلف بشـأن بعضها. ويستـطيع من يقرأ المقال تتبع المواقع التي تم التعرف عليها (المترجم)].



(١) خريطة بطلميوس لشمال الجزيرة العربية



(٢) خريطة بطلميوس لجنوب الجزيرة العربية

سلسلة أعداد الدورية لعامي ١٩٩٠-١٩٩٢

سلسلة اصدارات وحدة البحث والترجمة

١ـ تقلبات المناخ العالمي — عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز

٢ـ محافظة الجهراء — أ.د. زين الدين غنيمي

٣ـ تعدادات السكان في الكويت — د. أمل العذبي الصباح

٤ـ أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة — أ.د. عبدالله يوسف الغنيم

٥ـ أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية — أ.د. عبدالله يوسف الغنيم

٦ـ حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت — أ.د. صلاح الدين بحيري

٧ـ الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال الاستخدام الأرضي — أ.د. علي علي البنا

٨ـ البدو والثروة والتغير: دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان — ترجمة: د. عبد الاله أبو عياش

٩ـ الدليل البحري عند العرب — حسن صالح شهاب

١٠ـ بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة — د. ناصر عبدالله الصالح

١١ـ طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي — حسن صالح شهاب

١٢ـ نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية — د. عبدالحميد أحمد كليو، د. محمد اسماعيل الشيخ

١٣ ــ جغرافية العمران عند ابن خلدون — د. عبدالعال الشامي

١٤ ــ السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة — د. محمد محمود السرياني

١٥ ــ جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية — د. محمد سعيد البارودي

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١- بيئة الصحاري الدافئة	ترجمة: أ.د. علي علي البنا
٢- الجغرافيا العربية	تعريب وتحقيق: د. عبدالله يوسف الغنيم د. طه محمد جاد
٣- مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي	د. عبدالعال الشامي
٤- العالم الثالث: مشكلات وقضايا	ترجمة: أ.د. حسن طه نجم
٥- التنمية الزراعية في الكويت	أ.د. محمد رشيد الفيل
٦- القات في اليمن: دراسة جغرافية	د. عباس فاضل السعدي
٧- هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة	تعريب: د. سعيد أبو سعدة
٨- منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٩- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي	تحقيق القاضي اسماعيل بن علي الأكوع
١٠- المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق	د. أحمد حسن ابراهيم
١١- الأبعاد الصحية للتحضر	ترجمة: أ.د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢- التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد: دليل مراجع	د. صبحي المطوع
١٣- قواعد علم البحر	حسن صالح شهاب
١٤- الانسياق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض - الدمام	مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥- التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي	د. وليد المنيس د. عبدالله الكندري
١٦- كيف ننقد العالم	ترجمة: أ.د. علي علي البنا أ.د. زين الدين عبدالمقصود
١٧- أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي	د. عبدالحميد كليو
١٨- الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية	ترجمة: أ.د. حسن أبو العينين
١٩- جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت	د. السيد السيد الحسيني
٢٠- الشوائب في تحقيق كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد	تأليف: شهاب الدين أحمد بن ماجد
٢١- التحضر في دول الخليج العربية	د. خالد محمد النعقري
٢٢- جغرافية العالم الثالث	تعريب: د. حسن طه نجم د. مكي محمد عزيز
٢٣- الصور الجوية - دراسة تطبيقية	د. خالد العنقري
٢٤ - جيومورفولوجية منخفض أم الرمم بالكويت	د. عبدالحميد كليو